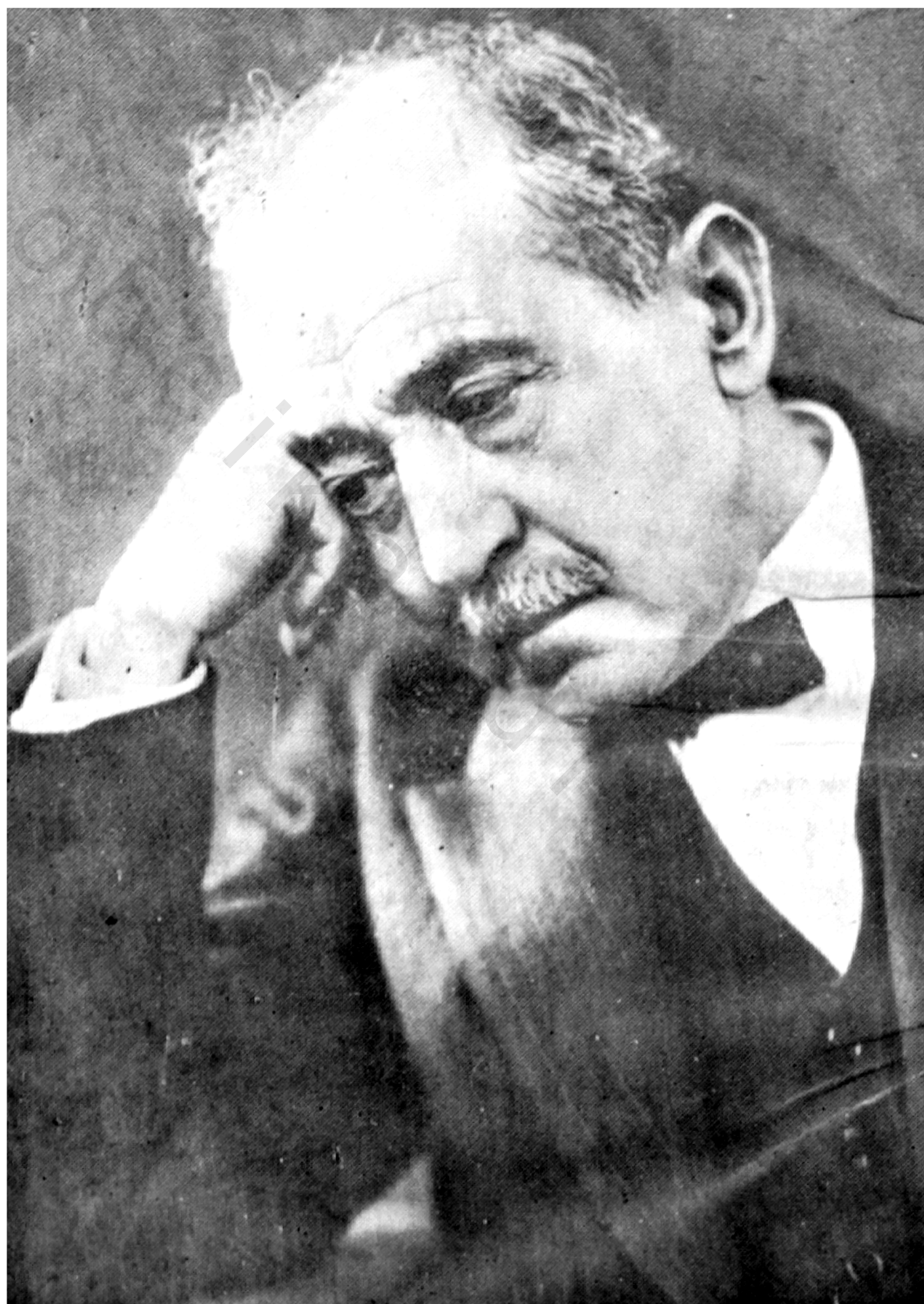


حسین شوقی

اُمی
نشوقی

obeikandi.com



obeikandi.com

مقدمة

بقلم مضمرة صاحب العزة الأستاذ الكبير خليل مطران بك

كان شوقي ، وقد أحب بنيه كما أحبهم ، جديراً بأن
يبروه كما يبروه حياً وميتاً .

أنهم ما زالوا إلى اليوم يتعقبون كل أثر من آثاره دقيقاً
كان أو جليلاً ، قريباً أو بعيداً فيوألون طبع دواوينه ومؤلفاته
النثرية ولا يغفلون طرفة من طرف أدبه حتى في أيام
صباه الأولى .

ومن ألطف آيات هذا البر هذا الكتاب النفيس
الذى صور فيه نجله حسين معاهد نشأته في ظل منجبه
العظيم ومالقيه من حنو ورحمة وعناية وما ربي فيه من دلال
وعطف ورعاية منذ تركت أسرته البيت القديم بخط الحنفى
وانتقلت إلى الدار التى اشتهرت بكرامة ابن هانىء فى المطرية
ثم إلى الصرح المشيد فى حديقته الواسعة على النيل بالجيزة .
ماذا شهدت تلك المنازل من صنوف الحفلات والمظاهر
الرائعة لا وجاهة الحققة ومن اختلاف الملوك والأمراء وأكابر

أهل العلم والأدب والفضل عرباً وفرنجة إلى رحابها وماذا
كان يجري في حجراتها كلما خلا أهلها بأنفسهم من لعب
أطفال هم الآن على المستشار لسفارة مصر بلندن وحسين
مدير مكتب المدير العام لجامعة فؤاد الأول والسيدة أمينة
حرم حامد العلايلي بك وكيل مجلس النواب .

وماذا كانت هيمنة أشرف ربات الحجال وأكرم
المحسنات المحسنات اللواتي ازدهى بهن وسام الكمال تلك
الزوجة الصالحة والأم الرعوم ، ماذا كانت هيمنتها على
أولئك الذين نشأتهم تنشئة الفضيلة والكرامة للأسرة
والوطن .

أما هذا كله فتقرأ له نوادر ولطائف وغرر وطرائف
في القصص الصغيرة التي انتظمها هذا الكتاب وما أشبهها
إلى النفس وما أبعد صراميتها في بساطتها وما أساس اللغة
التي كتبت بها وما أدلها بحملتها على أمرين جليئين : إن
« شوقي » كان خليقاً بالنعمة التي عاش فيها من حيث هو رب
بيت ومن حيث هو وجيه قوم وإنه جمع إلى عبقرية العقل
عبقرية القلب فكان كبيراً في أصغر دعاياته كما كان كبيراً
في أسمى مبتدعاته .

أبي « حوتى »

إننى سأحاول أن أنظر ورأى إلى الماضى البعيد خلال ضباب الزمن الكثيف ، وذلك قبل أن تتعذر نهائيا هذه الرؤية .
كما سأحاول أن أقص أولا ذكرياتى عن أبى فى عهد طفولتى ، ولو أن المحاولة شاقة ، لأن هذه الذكريات تزول شيئا فشيئا . .

فى ذلك العهد الذى يحق أن يقال عنه البعيد ؛ إذ يرجع تاريخه إلى أوائل عام ١٩١٤ ، أى إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، كنا نقطن المطرية ، إحدى ضواحي القاهرة المتطرفة ، كانت لنا هناك دار واسعة تحيط بها من كل جانب حديقة فسيحة ، وقد أطلق عليها أبى اسم « كرمة بن هانىء » . . . العباسى ، أى أبى نواس . . لأن أبى كان معجبا بهذا الشاعر الذى لم ينل حظه من الدراسة العميقة مع الأسف الشديد ، كما أن الأساطير جعلت منه شاعرا ماجنا .

ولقد اختار أبى ضاحية المطرية هذه ، على الرغم من

بعدها ، ليكون على مقربة من « قصر القبة » حيث كان يقضى
سمو المغفور له الخديوى عباس حامي معظم أوقات فراغه ..
لأنه كان شديد التعلق بأبى يرسل فى طلبه فى كل وقت ..
كانت كريمة ابن هانىء هذه تضم منزلا قديما جدد فيه
أبى كثيراً ، ثم شيد فى فناءه ملحقا ، ولو لم نكن فى حاجة
إليه ، لأن المنزل القديم كان يكفينا كل الكفاية ، إذ لم تكن
أسرتنا إذ ذاك كثيرة العدد ، فنحن خمسة : أبى وأمى وأخى على
وأنا ، ثم المريية التركية .. أما أختى أمينة . وكانت متزوجة فى
ذلك الوقت على الرغم من حداثة سنّها (تزوجت قبل الخامسة
عشرة !) ، فلم تكن تقطن معنا ، بل اقتنى لها أبى منزلا بجوار
منزلنا ، بعد ما أزال السور الذى كان حاجزا بينها وبيننا ..

قلت إننا لم نكن فى حاجة إلى الملاحق . وإذا كان أبى
شيده فذلك ليضع فيه ما كان يشتريه من أثاث وتحف من وقت
آخر فى المزادات العامة بدون أن تكون هناك حاجة إلى
أكثره .. إذ كانت هذه هواية أبى فى ذلك الوقت ..
من أجل هذا كان عندنا ثلاث غرف للطعام .. ثم خمسة
صالونات ، تعرف وتميز بألوانها .. فإذا أقبل ضيوف

لا يعرف أحدهم الآخر جلس كل منهم في صالون ، وكان
الخدام عندما يعلنهم لأبي يقول إن م . بك ينتظر في الحجرة
الخضراء ، وس . باشا ينتظر في الحجرة الحمراء ، وج . أفندي
ينتظر في الحجرة البيضاء . . الخ !

وهذه الحجر كانت تصير أصالح لو أصبحت تابعة
لفندق ، لأنها كانت تؤدى كلها إلى دهلز واحد . . وكانت
بسبب هذا الوضع العجيب ميدان لعبنا المفضل ، إذ كنا
نلعب فيها لعبة الاستخفاء ، ولو أننا كنا لا نقصدها إلا
في وضوح النهار ، لأن إحداها - وهي الحجرة الحمراء - كانت
على حد رواية الخدم ، مسكونة . . يزعم هؤلاء أنهم كانوا
يسمعون في أثناء الليل أصواتا غريبة تنبعث منها . . أصواتا
غير آدمية ! حتى في الصباح كنا نتجنب الحجرة الحمراء . .
مع أنني أعتقد أن هؤلاء الخدم قد اختلقوا تلك الرواية كي
يقصونا عنها . . لأننا كنا نعبث بنظام الحجر التي نلعب
فيها ، فنسبب لهم التعب الكثير في تنظيفها وإعادة ترتيبها
أما رفقائي إذ ذاك في اللعب فكانوا بعض أبناء الجيران
تضاف إليهم صبية زنجية صغيرة كانت خادمة خاصة لي أنا . .

وكانت هذه الصبية مستضعفة « هفّية » جماعتنا .. كم ذقت
المسكينة المرّ على أيدينا ! كنا على سبيل التعذيب ، نضطرها أن
تدخل بمفردها في الحجرة الحمراء ، فإذا فعلت أغلقنا وراءها
الباب بالمفتاح ، ولا نخرجها من هناك إلا مغمى عليها من
شدة الرعب والفرع .. وكانت إذا أفقت سألناها عما
شاهدت في الحجرة الحمراء ، فكانت تقسم عندئذ بأولياء الله
جميعاً ، على أن الشياطين كانوا يتناوبون قرصها ! وكان مما
يزيد في نفورنا من تلك الحجرة أن الضوء كان فيها قليلاً ،
وذلك بسبب طراز أثامها وزينتها .. على الطراز العربي
القديم .. أما الحجر الأخرى فكانت نيرة ، كما كانت على
الطرازين الفرنسيين الرقيقين : لويس الخامس عشر ولويس
السادس عشر .. وكانت أحب حجرة إلىّ هي الحجرة
الخضراء ، لأن صورة كانت معلقة بها تمثل هيلين الإغريقية
الحسنة .. فكنت أقف طويلاً وأنا مأخوذ بجملها الرائع ،
وقد رأي أبي ذات مرة وأنا على هذه الحال فقص على
قصتها ، وكيف أنها كانت ، على حدّ زعم الأساطير ، سبباً
في حروب طروادة الطويلة الدامية ، فكنت أحمس لدى

سماعى ذلك ، وأتتني لو كنت أعيش فى ذلك العصر لأسل
بدورى حسامى فى سبيل استرداد هيلين حريتها ولو بذلت
حياتى فى سبيل ذلك !

وكان هناك أيضاً خلاف الملحق المذكور ، سلاملك
يعتبر قبلاً لكبره ، حتى إننا لما بعنا كرمه بن هانى هذه ،
بعد عودتنا من المنفى بقبائل ، فصل المالك الجديد السلاملك
عن الباقي وباعه كدار صغيرة مستقلة . كما كان تحت هذا
السلاملك مكان للعربات ، إذ كنا نملك عربتين ، احدهما
« حنطور » والأخرى « فيتون » ، ثم حظيرة (اصطبل) للخيول
يضم حصانين ، ثم هياً أنى بجانبهما « چراچا » لسيارة ، إذ كان
من الأوائل الذين اقتنوا السيارات فى مصر ، مع أنه كان
على الرغم من تعلقه بالسيارات طوال حياته ، يخشى السرعة
فيحذر السائق على الدوام من الإسراع . كما كان يستحلف
أخى « على » حينما اقتنى سيارة يقودها بنفسه ، ألا يسرع ..
كانت « الكرمه » إذن مرتعاً خصباً لطفل مثلى ،
وبخاصة أن الحديقة ملئت بشتى الحيوانات .. الأليفة وغير
الأليفة ! فكنت تجد بها غزالنا وسلاحف وقردة وطواويس

ويغافوات .. ومئات من العصافير الملونة .. ثم علاوة على ذلك جىء إليها بتمساح صغير ، وقد وضع فى حوض بنى له خاصة فى الحديقة .. قد أحضره لأبى أحد أصدقائه من الضباط الوافدين من السودان ، وذلك تحقيقاً لرغبتى إذ كنت ألححت فى طلب ذلك .. وأبى لا يرفض لى طلباً ! وإليك الحادث الآتى الذى يدلك إلى أى مدى كان أبى يتوخى رضائى ويساير أهوائى :

كنت أرغمه على الجلوس فى الحنطور فى المقعد الصغير الأمامى ، على حين أجلس أنا أمامه فى المقعد الكبير ، وقد رآه مرة سمو الخديوى على هذه الحال ، وكنا نسير إذ ذاك فى ضاحية المطرية ، وكان سموه قادماً من قصر القبة فى طريقه إلى « مسطرد » ، فاستدعى أبى ولامه على ذلك ، سائلاً : لم تفعل هذا ؟ فأجابه : سله هو يا أفندينا لم يفعل بى هذا ! لذلك عندما قرروا أن أذهب إلى المدرسة نزل

على هذا الخبر كالصاعقة ! . إذ كيف أترك كل هذا النعيم وأذهب فأقضى الساعات الطويلة بين جدران أربعة ؟ وقد حاول أبى أن يبطل هذا القرار أو يرجئه ، ولكنه أخفق

أمام تشبث صريتنا التركية التي كانت تحكم البيت كله بيد من حديد . وأظن أنه لو لا هذه المربية الشديدة المراس لما ذهبت مطلقاً إلى المدرسة . ولما رأيت أن لا مناص من الذهاب إلى المدرسة أخذت أتمارض ، وكان أبي يساعدني إذ ذاك خفية على اختلاق المرض ! ولكن أكثر هذه الحيل كانت لا تجوز على المربية المذكورة ويا للأسف !

وأما والدتي ، فلم تكن تتدخل في هذه المنازعات ، لأنها بطبيعتها رقيقة الحاشية إلى حد بعيد . حتى لقد كان أبي يشبهها بقطعة من أنقرة ، بسبب هذه الرقة . وإشارة أيضاً إلى أنها من أصل تركي ، وقد اشتهر هذا النوع من القطط بالرقة والترف . وإذا كان أبي قد وفق في حياته الأدبية فأكبر الفضل راجع إليها بسبب خلقها هذا ، وبسبب طبيعتها التي لا حد لها . فهي لم توجه إليه لوماً في حياته مرة ! . مع أنه كان خليقاً باللوم أحياناً ! فهو كثيراً ما كان يستصحب وقت الظهر أصدقاء ، حين عودته إلى المنزل ، فيتغدى معهم . على حين تغدى هي وحدها . أما العشاء فكان يتناوله معظم الأحياء في الخارج !

وكان سريع القلب كالحيط . فطعام لم يهياً كما رغب
يعكر مزاجه . ولكن إذا كان مزاجه معتدلاً فهو لطيف
غاية اللطف، يدلل الجميع ويلطفهم، بل يرهق من حوله منا
بالقبلات . حتى (بلوته)^(١) كان لها نصيب من هذه القبل !
على أن أهم عيوب أبي أنانيته الشديدة . ترى هل هي من
لوازم الشعراء ؟ إذ أن «شيلر» عندما يتحدث عن طبع صديقه
«جوته» يقول : إنه في الواقع أناني إلى أقصى حدود الأنانية !
فمن أنانية أبي مثلاً أننا لم نكن نستطيع أن نتغدى في
ساعة معينة ، بل كان لزاماً علينا أن ننتظر إلى أن تأتي
شهيته ، وكثيراً ما كان يطول هذا الانتظار ؛ لأنه كان
يصحو من نومه متأخراً فيفطر بطبيعة الحال متأخراً أيضاً
وسبب هذا التأخير في النوم أنه يراجع بعد ما يعود من
سهرته ما نظم من شعر طوال نهاره .

ومن ذلك أنه عندما كنا في أوروبا وكنا نذهب إلى
أحد المطاعم كان يغضب منا ، من على ومنى ، حين نختار
الأصناف المألوفة ، بل كان يجب علينا ، على حسب رأيه هو

(١) كلمة كنت أفتيتها في أسبانيا ثم أحضرتها إلى مصر لدى عودتنا من هناك

أن نختار أصنافاً جديدة مجهولة الأسماء ، كي يختار هو منها
في المرة القادمة . إذا راقته ! فكانت اقتراحاته هذه تفسد
علينا الأكلة ، لأن تلك الأصناف المجهولة كانت «مقالب»
في معظم المرات . كان حظي منها مرة فنفدعا ، وطبعاً لم
آكله ! بل صدّ نفسي عن تناول أى طعام آخر . مع أنه
يقال إن طعم الضفدع كالحمّام السمين ؟

ألم يكن أبى أنانياً عندما تخلى عن الخديوى حين ،
سافر سموه إلى الحجاز ، ليؤدى فريضة الحج ، ذلك العاهل
الذى كان هو شاعر بلاطه ، والذى كان يحبه ويعطف عليه
كل العطف ؟ ! وكان أبى كلما روى هذا الحادث فيما بعد
يضحك ملء شذقيه . يقول إنه أقنع سموه بأنه ذاهب معه
إلى الحج ، ولكن لما بلغ الركب الخديوى بنها ، اختفى منه
أبى ، فجعل سموه يبحث عنه ولكن بدون جدوى . ويقول
أبى إنه اختبأ إذ ذاك في منزل أحد أصدقائه . ولما عاد سموه
من الحجاز وأخذ يَوْم أبى على فعلته ، اعتذر هذا قائلاً :
كل شيء إلا ركوب ظهر الجمال يا أفندينا ! . ولكي
يعوض سموه عن هذا التقصير ، نظم له قصيدة ترحيب

وتهنئة بالحج طويالة عامرة الآيات ، وهى التى مطلعها :
إلى عرفات الله يا ابن محمد

عليك سلام الله فى عرفات

وها هو ذا يتقدم فى هذه القصيدة إلى الخالق أيضاً
سبحانه وتعالى يلتمس صفحه وغفرانه لعدم تأديته هذا
الواجب الدينى فيقول :

دعانى إليك الصالح ابن محمد

فكان جوابى صالح الدعوات

وخيرنى فى ساج أو نجية

إليك فلم أختر سوى العبرات

وقدمت أعذارى وذلى وخشيتى

وجئت بضعفى شافعا وشكأتى

ومنها :

ويارب هل سيارة أو مطارة

فيدنو بعيد البيد والفلوات

ويارب هل تغنى عن العبد حجة

وفى العمر ما فيه من الهفوات

وتشهد ما آذيت نفسك ولم أضر
ولم أبغ في جهري ولا خطرأتي
ولا غلبتني شقوة أو سعادة
على حكمة آتيتني وأناة
ولا جال إلا الخير بين سرائري
لدى سدة خيرية الرغبات
ولابت إلا كابن صريم مشفقاً
على حسدى مستغفراً لعداتي
ولا حملت نفس هوى لبلادها
كنفسي في فعلى وفي نفثاتي
وإني - ولا من عليك بطاعة -
أجل وأغلى في الفروض زكاتي
أبالغ فيها وهى عدل ورحمة
ويتركها النساك في الخلوات
وأنت ولي العفو قاصح بناصع
من الصفح ما سودت من صفحاتي
إلخ ...

كما أرسل الآيات الآتية في برقية إلى شريف مكة
أثناء وجود سموه هناك :

دامت معاليك فينايا ابن فاطمة
ودام منكم لأفق البيت نبراس
قل للخدو إذا وافيت سدته
تمشى إليه ويمشى خلفك الناس :

حج الأمير له الدنيا قد ابتهجت
فالعود والعيد أفراح وأعراس
فلتحى ملتنا ! ولتحى دولتنا !

وليحى سلطاننا ! وليحى عباس
حقاً لم يصب شاعر خطوة كخطوته لدى مليكه . فقد
كان لا يخيب له رجاء ، كما كان لا يرضن عليه بئال . ولكن محبة
سموه له كانت تسبب له بعض المتاعب ؛ لأن طابوراً من أصحاب
العرائض والحاجات كان يقصد الكرمة كل صباح ، فكان
أبى يقابل منهم من استطاع ، فإذا كل أو كان معتل المزاج
هرب من باب خلفي صنع خصيصاً لهذا الغرض بالحديقة
وقد تجلى عطف سموه على أبى في حادث زواج أختي ،

ففضلاً عن هداياه الثمينة شرف سموه الكرمية بزيارته ليلة
الزفاف ، ووقف بالحديقة ثم أرسل في طلب أبي ، حتى إذا
أقبل هناك تهنئة حارة ثم انصرف ، وهي المرة الوحيدة التي
قبل فيها أبي يد سموه شكراً له على هذا العطف الكبير .
لأن الجالس على العرش في ذلك العهد ، كان لا يحضر أفراحاً
عادية ، كما أن صاحبة السمو زوجته المساوية شرفت الفرح
أيضاً بل مكثت مدة طويلة بجوار سرير أختي التي كانت
عريضة في تلك الليلة من سوء الحظ !

كم من أفراح وليال ملاح شاهدت الكرمية
في ذلك العهد !

إن عيد شم النسيم مثلاً كان يحتفل به فيها احتفالاً
رائعاً في كل عام ، كان أبي يدعو فيه خاصة جميع الكتاب
والشعراء . . . إنني ما زلت أتذكر على الرغم من صغر سني
وقتئذ : صورة العم الجليل خليل بك مطران وهو ينشد
أبياتاً في أحد هذه الاحتفالات وسط الاستحسان العام .

وكان الأدباء الأجانب الذين يصادف أن يكونوا بمصر
إذذاك يدعون إليها أيضاً ، وكان ممن دعوا منهم الكاتب الإنجليزي

المعروف «هول كين» وقد رَحَّبَ أبى بمقدمه بالآيات الآتية:

أيها الكاتب المصورّ صورّ

مصر بالمنظر الأنيق الخليق

إن مصر رواية الدهر فاقراً

عبرة الدهر في الكتاب العتيق

ملعب مثل القضاء عليه

في صبا الدهر آية الصديق

وامحاء الكلم أنس نارا

والتجاء البتول في وقت ضيق

ومنايا منا فكسرى فذى القر

نين فالقيصرين فالفاروق

دول لم تبد ولكن توارت

خلف ستر من الزمان رقيق

روضتى أزيّنت وأبدت حلاها

حين قالوا ركابكم في الطريق

مثل عذراء من عجائز روما

بشروها بزورة البطريق

ضحك الماء والأقاحى عليها
قابله الغصون بالتصفيق
زرتها والربيع فصلا نخت
نحو ركبكما خفوف المشوق
فانزلا في عيون نرجسها الغض
صيانا وفوق خد الشقيق .

وبمناسبة تلك الولايم التي كانت تقام بالكرمة في ذلك
العصر ، روى أبى لنا القصة الطريفة الآتية :
أقام أبى ذات ليلة حفلة ساهرة شائقة تكريماً للأمير
تركى عظيم ، دعى إليها عدد كبير من عظماء البلد وأعيانها ،
وكان المفروض طبعاً أن يفتح الأمير المذكور المقصف ،
ولكن تقدم الليل والأمير لا يحضر ، فاحتار أبى ماذا يصنع ؟
اتصل بفندق شپرد حيث ينزل الأمير فقبل له إن سموه
معتكف في غرفته ، فاضطرب أبى ثم استقل سيارته وأسرع
نحو الفندق ، وكم كانت دهشته حين ألقى الأمير مريضاً
حقاً وكان ذلك من كثرة ما تعاطاه من الشراب ! تألم أبى
لهذا لأن وليته التي أعدها من مدة وأنفق عليها كثيراً

سوف تحقق ، ثم تذكر خجأة ولم يغادر غرفة الأمير التركي بعد ، أن هناك بفندق الكنتنتال أميرين عريين كريمين ، ألا وهما الأمير فيصل (المغفور له الملك فيصل فيما بعد) وشقيقه الأمير عبد الله (ملك شرق الأردن الآن) ، فأسرع إليهما وقص عليهما كارتته مردفًا : ألا يرى الأميران العرييان أن يحلّ محل الأمير التركي في تصدر هذه الوليمة ؟ ولقد قبلوا بسموها هذه الدعوة المرتجلة عن طيب خاطر .. لجهما لأبى .. واغترباطًا بمحاولهما محل الأمير التركي ، لأنه كان هناك نفور بين الترك والعرب إذ ذاك ، وبهذه الوسيلة لم تحقق الحفلة !

في ذلك العهد البعيد كان سمو الخديوى يقضى معظم شهور الصيف في الآستانة (اسطنبول الآن) ، إذ كانت عاصمة الدولة العثمانية بل مقر الخلافة الإسلامية ... ولما كان على أبى أن يرافقه في أكثر سفره إليها ، فقد اقتنى لنا منزلا لطيفا في « بيوك دره » وهى بقعة جميلة على ضفاف البوسفور ، ولقد نظم أبى هناك أكثر قصائده التى تغنى فيها بجمال العاصمة التركية القديمة ، وأظن أن أطف هذه القصائد

القصيدة التي نظمها في وصف « كوك صو » وهو موقع
فتان في ضواحي الآستانة . ومعنى اللفظين اللذين سمى بهما
« ماء السماء » والقصيدة مطلعها :

تحية شاعر يا ماء « جكسو »

فليس سواك للأرواح أنس
ومنها : غشيتك والأصيل يفيض تبرا

وينسج للرُّبى حللا ويكسو
وتذهب في الخليج له وتأتي

أنامل تنثر العقيان خمس
وفي جيد الحميلة منه عقد

وفي آذانها قرط وسلس
ولأأت الجبال فضاء سفح

يسر النـ — اظرين ونار رأس
على فلك تسير بنا الهوينا

ومن شـ — عرى نديم لي وجلس
وكان لمنزلنا هذا في بيوك دره برج يشرف ، نظرا

لارتفاعه ، على جميع الضواحي ، كان أبي يقيم فيه الولائم للضيوف

وأكثرهم من المصريين المصطافين الذين كانوا يقسمون أنهم
لم يشاهدوا مكاناً أروع من هذا البرج، إذ كنت ترى منه إلى
جانب البوسفور، البحر الأسود، على الرغم من بعده منا...
كنت أصعد إليه كثيراً وحدي ثم أهدق النظر في
ذلك البحر الذي ينعتونه بالأسود عساي أشاهد فيه ماء من
ذلك اللون ولكن رجائي كان يخيب إذ كان لون هذا البحر
لا يختلف عن لون غيره من البحار !

ولكن عيب هذا البرج أنه لم يكن به مصعد ، لذلك
كان الصعود إليه بالأقدام مرهقاً .

وإذ كان منزلنا مشيداً في صلب الجبل ، كنا نعثر في
الحديقة على ثعابين ، وعقارب وسلاحف.. ولكن أكثرها
من حسن الحظ كان غير سام .

وكانت توجد بجوارنا سفارة روسيا ، وكانت أجمل
وأنعم سفارة في ذلك العهد في أسطنبول ، وكان يقوم على
حراستها جنود من القوزاق ذوو ملابس زاهية جميلة موشاة
بالقصب وأسلحة براقية ، كما كانت لهم شوارب طويلة
ولحي كثيفة يلقى منظرها الرعب في قلوبنا نحن الصغار .

ولم يكن اهتمام الروس بهيئة سفارتهم مستغرباً إذ ذاك، لأن هذا كان في عهد القياصرة الذين كانوا لا يرضون بمال في سبيل الظهور بالأبهة والفخامة . .

أما سفارات الدول الأخرى فكانت في القرية المجاورة لنا وهي « طرايا »، وكان لكل سفارة زوارق خاصة تحمل شاراتها ينتقل بها رجالها على البوسفور من شاطئ لآخر . وهذه الزوارق اسمها بالتركي « الكايك » وهي لطيفة المنظر ، رقيقة ، طويلة ، قليلة العرض ، ويلبس ملاحوها ملابس خاصة جميلة وهي سراويل بيضاء فضفاضة وعليها ستر قصيرة حمراء ، أما لباس الرأس فطربوش أحمر قان طويل .

وقد ذكر أبي هذه الزوارق فقال :

تنازعنا المذاهب حيث ملنا

زوارق حولنا تجرى وترسو

لها في الماء منساب كطير

تسف^(١) عليه أحياناً وتحسو

(١) أسف الطير : طار على وجه الأرض

صغار الحجيم مرهفة الحواشي
لها عرف إذا خطرت وجرس
إذا المجدف حركها اطمأنت
وإن هو لم يحرك فهي رعى (١)

وإن هو جد في الماء انسياها
فكل طريقه وتر وقوس
ومنزل بيوك دره هذا لم يعد له وجود الآن فقد التهمته
النيران في حريق عظيم شب منذ سنوات قليلة ، لأن معظم
المنازل في اسطمبول مقامة من الخشب .
ولكن على الرغم من جمال اسطمبول الطبيعي ، فقد
كان بها جسر ، « جسر جلطه » ، وهو من أهم جسورها ..
كان مشيداً من الخشب القديم المسوس ، وقد انتقده أبي
بالقصيدة اللاذعة الآتية :

أمير المؤمنين رأيت جسراً أمر على الصراط ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه
وتغضى الفأر لا تأوى إليه

(١) رعى من رعى الرجل إذا مشى مشياً ضعيفاً

ولا يتكلف المنشار فيه
سوى مر الفطيم بساعديه
وكم قد جاهد الحيوان فيه
وخلف في الهزيمة حافريه
وأسمح منه في عني جياة
تراهم وسطه وبجانبيه
إذا لاقيت واحدهم تصدى
كعفريت يشير براحتيه
ويعشى الصدر^(١) فيه كل يوم
بموكبه السنى وحارسيه
ولكن لا يمر عليه إلا
كما صرت يدها بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلى
على البسفور يجمع شاطئيه
يفيد حكومة السلطان مالا
ويعطيها الفنى من معدنيه

(١) يريد به الصدر الأعظم — وهو كبير الوزراء .

يجود العالمون عليه ، هذا
بعشرته وذاك بعشرته
وغاية أمره أنا سمعنا
لسان الحال ينشدنا لديه
(أليس من العجائب أن مثلي
يرى ما قبل ممتنعاً عليه)
(وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً
وما من ذاك شيء في يديه)

وقد اهتم بهذه القصيدة جلالة المغفور له السلطان
عبد الحميد وطلبها وقرأها باهتمام ..
وكان السلطان عبد الحميد معروفا لدى الأوروبيين
بالسلطان الأحمر ، وهو مظلوم ، على حد قول أبي بهذه التسمية ،
بل ضحية تشهير الأجانب لأنه كان حجير عثرة لمطامعهم في
تركيا .. وقد قدم الخديوي أبي لجلالته فوجده عكس ما كان
يشاع عنه ... رأى طاهلاً حياً ، متواضعاً مثقفاً للغاية ...
وجلالته هو الذي أنعم على أبي بالرتبة الغربية التي كان يحملها
إذ أن رتبته كانت « بك » ومع ذلك كان يلقب « بصاحب

«السعادة» ، وقلائل هم في مصر الذين أنعم عليهم بها.
ولما خلع السلطان عبد الحميد ، بيعت محتويات قصره
العظيم «يلدز»^(١) في المزاد العلني ، وكان أبي لا يرغب في
شراء أى شيء منه احتراماً لذكرى عاهله ، ولكننا ألحجنا
عليه في شراء كلبين هناك من نوع «اللولو» ، وهما لم يعمرأ
إلا أياماً ثم ماتا حزناً على فراق سيدهما ، إذ أضربا عن الطعام
وقد قال الطبيب الذي استدعيناها إذ ذاك أن لا علة بهما البتة
إلا الحزن !

كذلك اشترينا من قصر يلدز قطعة أنقرية سميناها
«زنبل» أى برد بالتركي لأنها كانت فاقعة البياض .
وزنبل هذه لم تكن عاطفية كالكلبين المذكورين إذ لم
تحزن قط على فراق سيدها . . ولكنها أتعبتنا بعاداتها
الأرستقراطية . . فهي مثلاً لم تكن تأكل إلا لحم الدجاج
كما أنها لم تكن تمكث بالأرض ، بل حجرة أمى كان مقعدها
المختار ، مسكينة أمى ! كم لزمنا مكانها الساعات الطويلة
دون أن تتحرك كي لا ترعج زنبل أو تقلقها ! ولقد ماتت

(١) هو اسم نهم بالتركية

هذه القطة المترفعة ضخمة أرسنقراطيتها ؛ وإليك ما حدث :
سافرنا ذات مرة إلى الخارج وخلفناها بالمطرية ،
بعد ما أوصينا بها الخدم ، بل كلفنا خادماً خاصاً بأمر طعامها ،
أى أن يشتري لها كل يوم دجاجة . . ولكن حدث أن
كان الخادم يأكل لحم الدجاجة ويعطى زنبيل العظام ،
فأضربت القطة عن الأكل حتى ماتت ! مسكينة زنبيل !
ما كان أجملها ! إننا لم نشهد في حياتنا قطة تعدلها في نعومة
شعرها ، ولا في ملاسة كفيها .. لقد كانا أملس من الزئبق !
كان أبى يفتبط كثيراً بسفره إلى تركيا ؛ إذ كان يحب
الأثر كحباً جماً . ترى أهذا بسبب الدم التركي الذى كان
يجرى فى عروقه ؟ لقد أشاد بانتصاراتهم كما بكى لهزائمهم ، بل
كان يراهم مجموعة فضائل ، فيقول مثلاً فى صبرهم عند الشدائد :
للترك ساعات صبر يوم محنتهم

كتبن فى صحف الأخلاق بالذهب^(١)

حتى خيلهم كانت فى نظره موضع إعجاب ؟
إذ يقول فيها :

(١) هى القصيدة التى هنا فيها الغازى أنانورك بانتصاره فى معركة سقاريا .

... والصبر فيها وفي فرسانها خلق
توارثوه أباً في الروع بعد أب
كما ولدتم على أعرافها ولدت

في ساحة الحرب لا في باحة الرحب
والواقع أن الترك شعب عظيم ، وأكثر شيء أعجبنا
هناك نظافة القوم ؛ وإليك الحادث الآتي الذي يدل على
مدى نظافتهم :

كنا ننزه ذات يوم في عربة « حنطور » بضواحي
استمبول فأصبحت إحدى عجلات العربة بعطب ، فرجانا
عندئذ السائق أن نستريح قليلاً في بيته ، وكنا على مقربة
منه ، حتى يصلح العجلة . فترددنا قليلاً إذ خشينا أن يكون
بيت السائق المذكور غير نظيف ، ولكن قبلنا في النهاية
كي لا نخرج شعوره ؛ وما كان أشد دهشتنا حينما وجدنا
البيت آية في النظافة ! . كما قدمت امرأته القهوة لأضي
والمرربة في فنجانين نظيفين جداً ، أما نحن الصغار فقد
أعطت كلا منا قطعة من الحلاوى التركية المعروفة
« باللكوم » .

استمرت رحلاتنا هذه الصيفية إلى اسطمبول لغاية إعلان الحرب العالمية الأولى ، وكنا لسوء الحظ هناك عندما أعلنت ؛ إذ كان الخديوى إذ ذاك مريضاً بسبب حادث إطلاق الرصاص عليه ، وقد أراد أبى أن نبقى بجانبه ، أى ألا نعود إلى مصر ، ولكن سموه ألح عليه فى العودة قائلاً : إن الحرب سوف تطول ، وتركيا ستنضم إلى الألمان ، وأنت معك أسرة كبيرة ، فإذا انقطعت المواصلات مع مصر ، وهو ما سيحدث قريباً ، فسوف تتعبون فى مثل هذه الأحوال ، فلم يسعنا إلا أن نرجع . . على ظهر آخر سفينة !

على أننا لم نكد نصل إلى مصر ، ثم يعزل بعد ذلك الخديوى ، حتى أخذ عدد زوّار « الكرمة » ينقص يوماً بعد يوم ، بل صار الأصدقاء يخشون لقاء أبى كي لا يتهموا بمصاحبة أحد رجال النظام القديم . . طبعاً ، كانت بينهم استثناءات ، لأن الدنيا لا تخلو أبداً من القلوب النبيلة ولو كان عددهم قليلاً ... وإلا فما أقبحها ! . .

كذلك يذكر أبى بالخير ذلك الضابط الشاب الذى

كلف بتفتيش الكرمة ، فكان يؤدي واجبه البغيض وهو
 في أشد حالات الخجل ، بل كان يكرر لأبي الاعتذار عن عمله .
 مسكين أبي ! كم تألم لهذه الحال ! وبخاصة لجهود
 الناس . . وهو الشاعر الشديد التأثر والإحساس ، لذلك
 قابل بارتياح حكم السلطنة العسكرية في ذلك الوقت حينما
 كلفته بمغادرة الوطن (عام ١٩١٥) ، لينجو من الدسائس
 ولا يتألم بمثل هذه المشاهد . . ومع ذلك حزن أبي لأنه ترك
 بمصر أمه المحبوبة ، وكانت مريضة في حلوان إذ ذاك ، إذ أن
 شعوراً خفياً كان يوحى إليه أنه لن يراها بعد !

لم يطرق أبي الهجاء إلا نادراً جداً لأنه يراه غير خلق
 بالشعر الرفيع ... وقد أشار إلى ذلك في القصيدة التي نظمها
 ترحيباً بديوان ابن زيدون حين ظهر مطبوعاً لأول مرة
 في مصر بعناية الأستاذ الأديب كامل كيلاني :

... وإذا الهجو هاجه	لمـ_____اناته أبي
ورآه رذيلة	لا تماشى التأدبا
مارأى الناس شاعراً	فاضل الخلق طيباً
دسّ للناشقين في	زنبق الشعر عقرباً !

..ولسكن إزاء ما رآه من جحود الناس في تلك الفترة
التي تلت عزل الخديوى ، اضطر أن يلجأ إليه اضطراراً ،
فيقول في الذين تألبوا عليه إذ ذاك ، في القصيدة التي
شكر بها أرض الأندلس لأنها استضافته ، والخطاب
موجه إليها :

..شكرتُ الفلك يوم حوِيت رحلى

فيا لمفـارق شكر الغرابا

فأنت أرحمتنى من كل أنف

كأنف الميت في النزع انتصمابا

ومنظر كل خوائف يرانى

بوجه كالبعغى رمى النقـابا

وليس بعاص بنيان قوم

إذا أخـلاقهم كانت خرابا

كما أنه هاجمهم أيضاً في القطعة النثرية التي كتبها لدى

اجتيازنا قناة السويس في طريق المنفى ، فقال :

« ... إن للنفي لروعة ، وإن للنأي للوعة ، وقد جرت أحكام

القضاء ، بأن نعبّر هذا الماء ، حين الشر مضطرم ، واليأس

محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت
جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم ، نفانا حكام
عُجْم ، أعوان العدوان والظلم ، خلفناهم يفرحون بذهب
اللحم ، ويمرحون في أرسان يسمونها الحكم .

ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه
أو يضعوه ، ساعهم في حقوق الأفراد وسامحوه في حقوق
البلاد ، وما ذنب السيف إذا لم يستح الجلاذ ؟ »

وعندما غادرنا القاهرة ، لم يحضر إلى المحطة لوداعنا
إلا عدد قليل من الأقارب والأصدقاء ، للأسباب التي
ذكرتها ، وكان بين الحاضرين المرحوم جدى لأُمى حسين
شاهين باشا الذى سميت باسمه ، وكان رجلاً وقوراً بل سيّداً
بمعنى الكلمة ، وهو من أصل تركى ، وقد أوصى أبى وهو
يودّعه أن يهون على نفسه لأن الحرب لن تطول أكثر من
سنة أشهر ، بل ربما عدنا قبل ذلك ؛ إذ أن الجيوش التركية
تتأهب لتحرير مصر من هؤلاء الإنجليز الشياطين . ولكن
الحرب مع الأسف دامت أربع سنوات ، وجدى هذا لم نره
بعد ذلك إذ مات ونحن في المنفى ، وهؤلاء الإنجليز الشياطين

قد مضى على وجودهم في مصر ثلاثون عاماً .. بعد هذا
الحديث ، وما زالوا جاثمين عليها !

أول اتصال لنا بأسبانيا العزيزة .. التي أضفنا فيما
بعد خمس سنوات ، كان في السويس .. إذ هناك ركبنا
السفينة الأسبانية التي أقلتنا إلى برشلونة ، وكانت قادمة
من جزر الفليبين ، وهي مستعمرة أسبانية قديمة .. من أجل
ذلك كان هناك اتصال مستمر بينها وبين أسبانيا .. والسفينة
المذكورة لم يكن منظرها مشجعاً ؛ لأنها لم تكن كبيرة
الحجم ولا جديدة البناء ، بل كانت سفينة بضاعة أعد بها مكان
صغير لقبول الركاب ... ولم يكن لدينا الخيار . وقدماً قالوا :
إن المضطر يركب الصعب !

ومع ذلك أظهرت سفينتنا أنها قوية حقاً ؛ إذ تحملت
عاصفة هوجاء بعد خروجنا من بور سعيد بقليل ، سأذكر
أمرها فيما بعد ..

ولقد صعد في السويس أيضاً إلى السفينة أربعة من
الرعايا الألمان والنمساويين ، قد أمروا مثلنا بمغادرة مصر ،

ولقد نجوا من مرارة الاعتقال الذى حل بإخوانهم فى القطار
إذ ذاك ، بسبب مهنتهم .. إذ كان أحدهم طبيباً ،
والآخرون رهباناً ..

أما نحن فكنا عشرة : أبى ، أمى ، أختى ، بنت أختى ،
وكانت سنّها وقتئذ بضعة أشهر لا غير .. ثم على ، أنا ،
المرية التركية ، خادمتان والأوسطى سيد الطاهى .. ولما
كان عددنا كبيراً ، كنا موضوع تفكّه لأبى الذى كان
يسمينا La ménagerie (أى الزريبة !) ..

أما زوج أختى ، حامد العلالي بك ، فمصيّرهُ كان أسوأ
من مصيرنا إذ سجن أولاً فى القلعة ثم رحل بعد ذلك إلى
مالطة حيث اعتقل أسير حرب ! . وكان قبل هذه الحرب
المشؤمة تشريفاتيا فى السراى .

كان هنالك على ظهر السفينة ، غيرنا وغير هؤلاء
الألمان والنمساويين ، بضعة ركاب أسبان عائدين إلى الوطن
وقد جن أحدهم بسبب طول الرحلة ؛ لأنه مضى على السفينة
المذكورة أكثر من شهر فى طريق العودة .. على أنه يقال
إن مثل هذا الجنون وقتى ، يزول بوصول المريض إلى البر

وكان هذا المجنون رجلاً في الخمسين مهلهل الشياب ترك شعره ولحيته بدون حلاقة ، وكان يحدث نفسه طول الوقت ، وكان معه بحار يقوم بحراسته في نزهته اليومية على سطح السفينة كي لا يلقى بنفسه في اليم . . ليس غير ، لأن المسكين كان في غير ذلك وديعاً لم يحاول الاعتداء على أحد قط ..

وكانت بالسفينة أيضاً شحنة كبيرة من الثيران ؛ لأن أسبانيا أكثر البلدان استيراداً لها بسبب حفلات المصارعة التي يجبها الشعب الأسباني حباً جماً ، على ما فيها من قسوة . أما العاصفة الهوجاء التي سبق التنويه عنها ، فقد صادفتنا بعد خروجنا من بور سعيد يوم ، وقد بدأت بعد الظهر واستمرت يومين كاملين كانت سفينتنا خلالها أرجوحة في أيدي الأمواج . وقد رأى القبطان إزاء الحالة الخطيرة التي كنا فيها أن يخفف عبء السفينة ، وذلك بأن يلقى في البحر جميع هذه الثيران !

وقد تم ذلك على الرغم من توسلات أبي . كم كان منظرها بشعاً إذ ذاك ! كانت الثيران المسكينة عندما تلقى

إلى الموج تحاول العوم فإذا كلت أسامت نفسها للقضاء
وهي تصيح صياحا مؤلماً كأنها تشهد السماء على هذا الظلم !
وكان الرهبان في هذه الأثناء يرتلون ؛ وعندما سكنت
العاصفة بعد ذلك ، سألت أبي : أدعائهم هو الذي أنقذنا
من الغرق ، فأجابني : بل هي دعوات جدتك الطيبة
يا بني وبركاتهما .

أما الطبيب ، وهو نمساوي ، فقد أبدى همّة عظيمة
في تخفيف وطأة دوار البحر علينا . وقد أحبيناه من تلك
اللحظة ، كما صار صديقاً حميماً لأبي طوال الرحلة ثم مدة
المنفى في أسبانيا ، واستمرت هذه الصداقة بعد عودتنا إلى
مصر بعد الحرب ؛ إذ عاد هو أيضاً إليها . وكان بها طبيباً
مشهوراً من قبل لدى الجاليتين الألمانية والنمساوية . ومع
أنه كان إخصائياً في الأذن والحنجرة ، فقد برع في بعض
فروع الطب الأخرى ؛ مثال ذلك أنه أنقذ قريباً لنا من
حمى التيفوئيد ، على الرغم من خطورة الحالة ، كما خلع ضرساً
لإحدى قريباتنا . وهي تقسم أنها لم تشعر بأى ألم عند الخلع
لأن يده كانت غاية في الخفة .

ومما حببه إلى أبي سعة إطلاعه في شئون السرطان ،
لأن أبي كان يخشى هذا الداء كثيراً ، إذ قرأ مرة أن أكثر
الناس تعرضاً له هم المفكرون . . لذلك كان عند ظهور أى
دمل في لثته أو على لسانه يتوجه من فوره إلى عيادته . .
كذلك حبيته إلى أبي أخلاقه البوهيمية ، فلم يكن
يحفل بالمظاهر ، ولا يتقيد بموعد ، ولما كنا في أسبانيا ، كان
لا يعمكث في العيادة إلا المدة الكافية لجمع مصروفات سهرته ،
فإذا تم له ذلك أغلق العيادة وانصرف ! وكنت إذا ملته على
هذا التصرف وقلت له إن عليه أن يحسب حساب المستقبل ،
أجاب ساخراً بأن الحياة قصيرة جداً . . ويجب اقتناص
الفرص قبل زوالها . . والواقع أن السهر كان مغرياً في أسبانيا
وبخاصة في برشلونة (التي اتخذناها مقراً لنا هناك) لأن
أهلها من أكثر الناس حبا للمرح والسرور ، ولأن ملاحيتها
كانت تظل مفتحة الأبواب حتى . . صياح الديك ! من
أجل ذلك كنت كلما تجد موظفاً يذهب هناك إلى عمله
قبل العاشرة ! .

على أن طيبننا هذا عندما عاد إلى مصر وبدأ الشيب

يدب في رأسه ، أصبح يحرص على جمع المال فلا يرد الزباين
كما كان يفعل في أسبانيا .. لذلك ترك ثروة لا بأس بها
عندما مات في عام ١٩٣٥ ، أى بعد وفاة أبى بثلاثة أعوام ..
وقد وهبها لابن (ترمجيه) الذى كان قد تبناه . ومن حسنات
هذا الطبيب أنه كان يعالج الفقراء مجاناً ، مع أنه كان شديداً
في معاملته للأغنياء !

وكان يحب المصريين حبا جما وبخاصة المسلمين .. حتى
لقد أسلم بعد عودته إلى مصر بقليل .. وقد اختار اسم حسين
مثلى .. مجاملة لأسرتنا ..

عندما وصلنا إلى برشلونة ، أقمنا عدة أسابيع فى فندق
فى قلب المدينة لأن حياة الفنادق لذيذة مسلية ، فكل يوم
تشهد مناظر مختلفة ووجوها جديدة .. ولكن نفقات مثل
هذه الحياة كانت باهظة وبخاصة لأسرة كبيرة مثلنا .. كما أن
النقود التى كان يرسلها إلينا وكيلنا فى مصر كانت محدودة بأمر
السلطة العسكرية ، حتى لا نستطيع — على حد زعمها —
أن نساعد بها أعداء بريطانيا العظمى ! .. ولم يكن هذا المنع
خاصا بنا ، بل كان يشمل جميع المصريين فى الخارج إذ ذاك ..

لذلك لم نلبث أن استأجرنا منزلاً في ضاحية جميلة من
ضواحي برشلونة تدعى « قلندريرا »، وهى مرتفعة كثيراً
عن قلب المدينة، لذلك كان فى استطاعتنا أن نشهد
بسهولة بحرنا الأبيض المتوسط الجميل . . . المشترك . . .
والسفن وهى رائحة غادية فيه، ليل نهار . . . فبعث منظرها
فينا الحنين إلى الوطن ومنظرها هذا الذى أوحى إلى أبى
أن يقول :

. . . مستطار إذا البواخر رنت
أول الليل أو عوت بعد جرسِ
راهب فى الضلوع للسفن فطن
كلما ثرت شـاعهن بنقس
يا ابنة اليمّ ما أبوك بخيـل
ما له مولعا بمنـع وحبس ؟
أحـرام على بلابله الدو

ح . . . حلال للطير من كل جنس ؟
والحنين إلى الوطن فى الشعر الذى نظمه أبى بالأندلس
كثير . فقصيدته التى يعارض فيها قصيدة ابن زيدون فى

بَنَّا فَلَمْ نَخْلُ مِنْ رَوْحِ يَرَاوَحِنَا
مِنْ بَرِّ مِصْرٍ وَرِيحَانٍ يَفَادِينَا
كَأَمْ مُوسَى عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَكْفِلُنَا
وَبِاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِي الْيَمِّ تَلْقِينَا
وَمِنْهَا : أَرْضُ الْأَبُوَّةِ وَالْمِيلَادِ طَيْبِهَا
مَرُّ الصَّبَا فِي ذُيُولٍ مِنْ تَصَايِينَا
كَانَتْ مُحَجَّـةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا
غُرّاً مُسْلَسَلَةً الْمَجـُـرَى قَوَافِينَا
فَلَابَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لَاعِبِنَا
وِثَابٍ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لَاهِينَا
وَلَمْ نَدْعِ لِلْيَالِ صَافِياً فِدَعْتَ
(بَأَنْ نَقْصَ فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا)
لَوْ اسْتَطَعْنَا نَخْضُنَا الْجَوْ صَاعِقَةً
وَالْبَرَّ نَارَ وَغَىَّ وَالْبَحْرَ غَسْلِينَا
سَعِياً إِلَى مِصْرٍ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرِنَا
فِيهَا إِذَا نَسِيَ الْوَافِي وَبَاكِينَا

كنز بجلوان^(١) عند الله نطلبه

خير الودائع من خير المؤذينا

لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا

لم يأت الشوق إلا من نواحيننا

إذا حملنا لمصر ، أو له شجنا

لم ندر أى هوى إلامين شاجينا

وكان لمنزلنا هذا فى « قلديرى » كنيسة صغيرة خاصة

به فى الحقيقة . كنا نستعملها كسلامك لقربها من الباب

الخارجى . ومثل هذه الكنائس الخاصة الصغيرة كثيرة فى

أسبانيا ؛ لأن الأسباب كانوا فى ذلك الوقت من أكثر

شعوب العالم تدينا .

وكانت تقطن بجوارنا أسرة نبيلة أسبانية ، وكان لها

ابن يشاطرنى اللعب ، نلعب تارة عنده وأخرى عندنا ؛

وكان أكثر لعبنا لعبة الحرب . أى كانت لنا عساكر نحفر

لها خنادق فى الحقيقة ؛ إذ كنا نقاد ما نسمعه عن الحرب ،

(١) اشارة إلى والدته

ولكن كنا نتشاجر على القيادة . على أيننا يكون القائد
الألماني العظيم هندنبرج . إذ كل منا يتمنى أن يكون إياه .
وهذا الشاب ، قتل الجمهوريون الحمر أبويه خلال
الحرب الأهلية ، عام ١٩٣٨ ، لالسبب إلا لأنهما من النبلاء ،
أما هو فقد حارب في صفوف القائد فرانكو ، وقد فقد
التعس عينه اليمنى في إحدى المعارك . مع أنه كان وهو طفل
ثم وهو شاب ، جميلاً جداً .

ولما كان كل منا يجمع طوابع البريد ، كنا نتبادلها ،
فأعطينه أنا الطوابع المصرية التي ترد على الخطابات المرسلة
إلينا من مصر . في حين هو يعطيني طوابع أسبانيا
ومستعمراتها . .

وكان أبي يشجني في هوايتي هذه ، قائلاً إنها تحبب
الأطفال في تعلم الجغرافيا .

أما النقود التي كانت ترسل إلينا شهرياً من مصرفي
٢٠٠ ج كانت تصلنا حوالى ١٢٠ ج فقط ، لأن الجنيه
الإنجليزي الذي كنا (وما زلنا !) مرتبطين به كان في هبوط

مستمر إذ أن حالة إنجلترا وحلفائها الحربية كانت سيئة جداً إذ ذاك .

حقاً ! إن الإنجليز قوم محظوظون . فهم يكسبون الحروب دائماً في الشوط الأخير . كما حدث في الحرب الأوربية الثانية ! ومع ذلك ، كانت هذه النقود القليلة تكفينا كل الكفاية ؛ لأن الحياة كانت رخيصة في أسبانيا في ذلك الوقت . مثال ذلك أننا كنا نشترى مئة البرتقالة بخمسة قروش !

كان أبي يعطيني بنفسه دروساً في اللغة العربية طوال مدة المنفى ، كما كان يدرس لأخوي . أما العلوم الأخرى فكنت أتلقيها في مدرسة ألمانية التحقت بها ، إذ كنت شديد الرغبة في تعلم اللغة الألمانية . أما أخوأي فكانا يتعلمان الفرنسية وبقية العلوم على مدرس فرنسي يحضر خصيصاً إلى المنزل .

كذلك شرع أبي يتعلم اللغة الأسبانية . وقد تعلمها فعلاً ولكن نطقه فيها لم يكن سليماً ، لذلك كان يشير ضحكنا

كلما أخطأ في النطق أماننا . مما كان يفضبه ويجعله يصيح :
حقاً ! أنتم أولاد غير متريين !

وما زلنا محتفظين إلى اليوم بكتاب النحو الأسباني
الذى كان يتعلم فيه . وقد غطى غلافه بأشعاره ؛ لأنه كان
من عادته أن يكتب على أية غلافة كتاب بيضاء تصادفه !
وهذه الأشعار من كتاب « دول العرب وعظماء الإسلام »
الذى ألفه كله هناك ، كما ألف في تلك الحقبة رواية
« أميرة الأندلس » .

لم يجد أبى حوله أصدقاء في برشلونة ؛ لأن هؤلاء
لا يكونون عادة إلا حيث تكون المنفعة ، وأبى كان لا يملك
إذ ذاك نفعا ! بيد أن الطبيب النمساوى الذى أشرت إليه ،
كان يرفه عنه كثيراً بصحبته المسلية غير المغرضة . كما أن
مكانه كان محفوظاً عندنا على مائدة الطعام ، كل يوم
أحد ظهراً .

تعرف أبى أيضاً هناك بتاجر سورى من المهجر لطيف
المعشر فيلسوف ، كان قد جمع في البرازيل نحو عشرين ألف جنيه

وكان ينوى العودة إلى وطنه ، وقد جمع هذه الثروة من بيع الأقمشة للسيدات في دورهن ، لأن السيدات البرازيليات كسالى يؤثرن شراء لوازمهن وهن قابعات في كسور دورهن كما أنه كان يبيع لهن بالتقسيط لتيسير عمله ، لأن معظمهن كن من الطبقة المتوسطة ولكن مما آلمه في جمع هذه الثروة السلام الكثيرة التي كان يضطر إلى صعودها إذ ذاك ، لأن أكثر الدور التي كان يذهب إليها ، لا تساعد بها . وقد أضاع المسكين هذه الثروة في برشلونة في بضعة أسابيع بالبورصة ... ولما سأله أبي عما ينوى عمله بعد ذلك أجاب في كل بساطة بأنه عائد إلى البرازيل ليصعد السلام هناك من جديد !

كان هناك في برشلونة مصرى واحد غيرنا في ذلك الوقت ، وهو وجيه يعرفه أبي من مصر .. كان موضع تسلية أبي بتصرفاته الغريبة الشاذة . مثال ذلك : أنه قرر يوما بدون مناسبة أن يقتصد مع ما كان فيه من رغد العيش إذ يصله هو وحده (كان أعزب) مقدار ما يصلنا نحن مجتمعين وذلك بفضل مركزه الاجتماعى الكبير في مصر .. فاستبدل

بالشقة الجميلة التي كان يقطنها أخرى حقيرة ضيقة .. كما اتخذ إجراءات أخرى اقتصادية. في الملابس والخدم..إلا الأكل ! إذ كان أ كولا جداً .. وفعلاً جمع خلال سنة ما يربى على ألف جنيه .. ثم إذا به يدفعها كلها ، ثمناً لأثاث غرفة أكل ! ولكن هذا الأثاث مع الأسف لم يدخل في غرفة أكله الجديدة لصغر حجمها ، فاضطر أن يبيعه ثانية بخسارة عظيمة يقال إن هذا الوجيه كان ثرياً جداً فيما مضى ، وقد كان له يَخت جميل يطوف به في الصيف على شواطئ البحر الأبيض . ومناسبة هذا اليخت أذكر عن هذا الوجيه القصة العجيبة الآتية :

هاجته ذات مرة أحد الصحفيين مهاجمة مرة تضايق منها الوجيه جداً ، ففكر في الانتقام من الصحفي ، فدعاه إلى وليمة في قصره أفهمه خلالها أنه تغاضى عما حدث ، وأنه يجب أن يصبح صديقين . ثم دعاه بعد ذلك إلى السفر معه على ظهر يخته في نزهة إلى اسطنبول ، ولكن هذا الصحفي اعتذر بأن حالة ملابسه لا تسمح له بالسفر في مثل هذه الرحلة الأنيقة ، عندئذ أخرج الوجيه من جيبه ورقة بخمسين

جنيتها وأعطائها إياه ، حتى لا يكون له عذر في التخلف .
وفعلا سافر الصحفي على اليخت . ولكن لم يكد اليخت
يبتعد عن الإسكندرية حتى أمر هذا الوجيه البحارة فقبضوا
على الرجل ثم أوثقوه بحبل من وسطه ثم أخذوا يلقون به
في الماء ، فإذا أشرف على الفرق أخرجوه ثانية . ثم عادوا
فأوثقوا ركبتيه إلى القرب من رأسه ، وأمر بأن يوضع على
الفرن ويرفع ثم يوضع ويرفع وهكذا ، حتى أصبح المسكين
غير قادر على الجلوس أو النوم على ظهره . وقد ظل هذا
العذاب طوال الرحلة المشؤمة .

ولما بلغوا اسطمبول شكا الرجل إلى أبي هذا الوجيه
راجياً إبلاغ شكواه إلى سمو الخديوى ، وكان مصطفى
وقتئذ هناك ، وفعلا أوصلها أبي إلى سمو فدعا سمو الوجيه
وعنفه على فعلته كما أمره بترضية الصحفي بمبلغ كبير من المال .
أعود الى أبي فأقول إنه لا ريب عندي في أنه كان
بوهيمي النزعة إلى حد بعيد ، فكثير من تصرفاته يدل
على ذلك . . .

ألم يكن بوهيمياً ، حين كان يماوننى

على الهروب من المدرسة في المطرية؟ كذلك الحادث الآتى :

الذى وقع ونحن في برشلونة دليل ساطع على ذلك :

ركبنا « الأوتوبيس » ذات يوم (هو وأنا) فصعد

رجل عملاق بادی الترف والثراء ، يعلق سلسلة ذهبية بصدرة

وفي فمه سيجار ضخم ، ثم ما لبث أن استسلم للنوم في ركن

من العربة ، وراح يغط غطيظاً يرهق الأعصاب ، وصعد

نشال في مقتبل العمر جميل الصورة وهمّ بأن يخطف السلسلة

ولكنه أدرك أن أبى يأمحه فأشار إليه إشارة برأسه مؤداها :

هل آخذها؟ فأجابه أبى برأسه « خذها » فنشلها الشاب

ونزل . بعد ما حيا أبى برفع قبعته له ! ولم يكذ ينزل حتى

التفت إلى أبى وقلت : هل يصح أن تترك النشال يأخذ

سلسلة الرجل وهو نائم؟ فأجاب : شىء عجيب يا بنى !

لو كنت مقسماً الحظوظ . فامن كنت تعطى السلسلة الذهبية؟

أ كنت تعطيها عملاقاً دميماً أم شاباً جميلاً؟ فقلت : كنت

أعطيها الشاب الجميل ، فأجاب ببساطة : ها هو ذا أخذها !

مثال هذه البوهيمية أيضاً تصرفه الآتى :

كان في حاجة إلى طبيب أسنان لحشو بعض الضروس

فعرفه صديقنا الطبيب النمساوى بطبيب آخر نمساوى أيضاً
للأسنان . ولكن أبى بدلا من أن يذهب إلى هذا الطبيب
فى عيادته كما يفعل سائر الناس ، كان يكلف الطبيب المسكين
بالحضور إلى المنزل وهو متأبط آلة العمل ! ولولا أن هذا
الطبيب كان قويا لما تيسر له حملها ! وحجة أبى فى ذلك أن
أعصابه لا تتحمل الانتظار فى العيادة، والمدهش أن الطبيب
كان يستجيب لمثل هذا الطلب العجيب ! حقا ! ما كان
أصدق أبى عند قوله عن النمساويين : إنهم أرق شعوب
أوروبا وأطيبهم أخلاقا ! والواقع أن أبى كان يحبهم . وربما
كان قد تأثر فى ذلك من معاشرته لسمو الخديوى ؛ لأن
المغفور له عباس الثانى كان شديد التعلق بهم ، وقد يرجع
تعلق سموه بهم إلى أنه تعلم فى قينا حيث كان موضع حفاوة
إمبراطورهم المحبوب فرنسواه يوزف وإكرامه . كذلك لقي
سموه فى أثناء الحرب العالمية الأولى كل عون من جلالته
حين اضطر إلى مغادرة اسطمبول والالتجاء إلى النمسا ،
وذلك على أثر تجهم الأتراك له . أو — على الأصح — تجهم
حزب الاتحاد والترقى الذى كان يحكم تركيا إذ ذاك .

وقد تعرف أبى ونحن فى برشلونة بأديب من دعاة
الانفصال ، أى الذين يريدون أن تنفصل مقاطعة قطلونيا
التي عاصمتها برشلونة عن سائر أسبانيا . وحجة هؤلاء أنهم
ليسوا أسباناً ، بل هم يختلفون عنهم فى كل شىء ؛ فى اللغة ،
وفى العادات . كما أنهم كانوا دائماً معروفين بالنشاط والاجتهاد
فى جميع العصور ، فى حين أن الأسبان ، على حد قولهم ،
خاملون ، يعيشون على كد القطلانيين ونصيبهم . ومما زاد
فى تعلق هذا الأديب بأبى ، أن أبى مصرى ومصر مثل بلده
قطلونيا ضحية احتلال أجنبي . كان ينشد أبى قصائد وطنية
طويلة وكثيرة نظمها باللغة القطلانية أولاً ، وهى لا يفهمها
أبى طبعاً ، ثم يترجمها له بالفرنسية . وكان أبى يحمل على نفسه
فى ذلك . لا لشىء إلا لأن الأديب المذكور كان أجنبي .

وكنا اقتنينا فى ذلك الوقت كلباً من أصل ألماني ، من
فصيلة الذئب ، وكان هذا الكلب مع الأسف لا يميل إلى
هذا الأديب ؛ فقد أطبق ذات يوم وبدون إنذار فى عجزه ،
ولكنه لحسن الحظ ، لم يظفر فى هذا الهجوم الغادر
إلا بقطعة من قماش البنطلون ليس غير .

كنّا نحيا في برشلونة حياة أسرية بكل ما تدل عليه
هذه الكلمة ، أى كنّا نستطيع أن نخرج كلنا معاً للنزهة
رجالاً ونساءً ، وهو أمر لم يكن متيسراً في مصر إذ ذاك
بسبب الحجاب . الذى لم يقض عليه إلا في خلال الثورة
المصرية .

فكنّا نقوم برحلات جميلة في أيام العطلة في ضواحي
برشلونة الفاتنة ، ولقد جمعت المدينة المذكورة ميزتين :
الجبـل والبحر .

وقد كنّا نوثر النزهة في الأودية والجبال وبخاصة في
فصل الربيع ؛ إذ للغابات رائحة ذكية عجيبة إذ ذاك ، مصدرها
أشجار الصنوبر ، وكنت أطاردها هناك الفراش حيث يوجد
بكثرة وفي ألوان زاهية رائعة ، حتى ليخيل للمرء أنه قادم
من الجنة ؛ وكنت أحفظه في عاب خاصة غطاؤها من
الزجاج ، وقد كان أبى يعارضنى في ذلك إذ كان يرى عملى هذا
بعيداً عن الشفقة والإنسانية ؛ وكنّا نصعد أحياناً في مثل
هذه الرحلات إلى قمم الجبال العالية إلى حد أننا كنّا نرى
السحاب في متناول أيدينا فنفرع ونعجل في النزول خشية

أن يكون به شياطين مختبئة فتخطف أحدا

أما آثار العهد الإسلامى ، فلم يكن هناك شيء يرى منها فى برشلونة ، لأن العرب لم يدم حكمهم فى تلك المناطق الشمالية طويلا ، وقد كان مضطربا ، على عكس حكمهم فى الجنوب الذى يضم آثاراً عربية كثيرة بل عظيمة وبخاصة فى مقاطعة الأندلس . .

ولا يشاهد المرء آثار العرب فى الأندلس فحسب ، بل يحس هناك كذلك بجوهم . . كما ألفينا به أيضاً ، فى غبطة وسرور ، سماء الشرق الصافية اللازوردية . . التى حرمتنا منها طويلا فى برشلونة . . حيث يكثر الغيم والمطر . على أنه لم تيسر لنا زيادة الأندلس إلا بعد عقد الهدنة ، عندما رفعت القيود العسكرية التى كانت مفروضة على إرسال النقود إلى الخارج ، إذ لم يكن فى استطاعتنا قبل ذلك أن نبعث ما يصلنا من مال فى التنقل من مدينة إلى أخرى .

وإذا كنا قد اخترنا برشلونة للإقامة طوال مدة المنفى

فيرجع ذلك إلى أن بها جميع أسباب الراحة والعمران .. ففي الجنوب مثلاً ، في ذلك العهد ، كانت هناك قطارات محمية لا مراحيض بها !

كما كانت برشلونة أكبر مدن أسبانيا ، بل هي أكبر من مدريد نفسها ، العاصمة ! ومع طول إقامتنا في برشلونة لم يتسرب الملل إلى نفوسنا ، لما عليه المدينة من جمال وبهجة كما ذكرت .. وبخاصة نحن الصغار إذ وجدنا بها أشياء لم نجدوها في مصر : الجبال ، الغابات .. ثم الثلج الذي كان موضع تسلية عظيمة لنا ، إذ كنا نتقاذفه في حماسة عظيمة .. لذلك عندما سمح لنا بالعودة إلى مصر ، أذرفنا الدمع ونحن نغادر ميناءها .. أما بالنسبة للكبار ، أى لأهلنا فلم تخل هذه الإقامة من قلق دائم مستمر بشأن النقود التي كانت ترسل إلينا من مصر ، فقد كانت تتأخر طويلاً أحياناً بسبب ظروف الحرب ... إلى أن انقطعت كلية في وقت من الأوقات .. وذلك على أثر ما نشرته إحدى الجرائد الإنجليزية الكبيرة التي تصدر في لندن من أن شاعراً عربياً كبيراً مقيماً في أسبانيا يحرض عرب مراکش على محاربة

الحلفاء ! فظنت السلطة العسكرية الانجليزية في مصر انه
أبى ، لذلك منعت على سبيل الانتقام ، إرسال هذه النقود
إذ من ذا يكون الشاعر العربى المقيم فى أسبانيا إذ ذاك
غيره ؟ وقد استمر هذا المنع ستة أشهر اضطرت والدتى
وأختى خلالها إلى رهن حليهما . . ثم رأى أبى أن يتصل
بالسفير البريطانى فى مدريد . وكان قد تعرف به خلال
وجوده فى برشلونة فى زيارة قصيرة ، وذلك فى دار الوجيه
المصرى المذكور ، فلم يتأخر السفير فى تلبية رجاء أبى . .
لأنه هو أيضاً كان شاعراً لحسن الحظ . . فتوسط عن طيب
خاطر لدى السلطة العسكرية فى مصر ، وبفضل هذا
السفير سمحت السلطة بإرسال النقود ثانية .

كان هذا السفير مثال الأدب والرقه ، إذ عرض على
أبى أيضاً ، على معرفته البسيطة به ، أن يقرضه بعض المال
فى حين لم يفكر الوجيه المصرى فى ذلك !

ومع أن الهدنة عقدت فى سنة ١٩١٨ ، فلم يسمح لنا
بالعودة إلى مصر إلا فى أواخر ١٩١٩ ، وكان المانع فى العودة
فى هذه المرة : السلطات المصرية ! .. لا السلطات الإنجليزية ؟

ولكن لما كانت القيود المالية قد أزيلت إذ ذاك ،
استطعنا أن نتجول في اسبانيا كما كنا نشتهي ونريد .

بدأنا تجوالنا بزيارة جزر البليار لقربها من برشلونة
فهى على بعد ليلة منها بالبواخر السريعة . وأهم مدنها
أو بالأحرى قراها ، « پاما » فى جزيرة ميورقه .. ومعظم
سكانها صيادو سمك .. أما رواد الجزيرة فأكثرهم فنانون ،
لأن المناظر الطبيعية فى تلك البقعة الجميلة لامثيل لها ، كما أن
الجو فيها صحو معتدل ..

كذلك يقصدها كثير ممن هم حديثو عهد بالزواج ،
لقضاء شهر العسل فيها .. ولقد كان بعضهم معنا على
ظهر السفينة ..

من كبار الأدباء الذين أحبوها فى الجيل المنصرم ، الكاتبة
الفرنسية النابغة جورج صاند .. والموسيقار البولونى العظيم
شوپان ، ولقد كانت الجزيرة مسرحا لهما فترة من الزمن
قضينا فى « پاما » أسبوعا مر كأنه حلم جميل .. ولقد صحبنا
فى هذه الرحلة الجميلة صديقنا الطبيب النمساوى ..

سافرنا بعد ذلك إلى مدريد العاصمة ، وهى أكثر المدن التى شاهدتها أرسقراطية ، فمنازلها بل أهلها تبدو عليهم سماء النبل ، وهى على عكس برشلونة ، فيينا برشلونة مجدة مجتهدة ، كلها مصانع ومعامل إذ بمدريد مدينة الواجهة ليس غير . . إنها تحيا عالة على سائر المملكة ، كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة ترى من الطبيعى أن يقدم إليها رعاياها المخلصون الهدايا والقرابين !

ومدريد متاحف ثمينة جداً ، أهمها الپرادو الذى يضم صوراً زيتية رائعة للمصورين الأسبان المشهورين : فلاسكت موريليو ، جريكو . . كذلك هناك صور للمصورين الهولنديين النابغتين : روبنس وغان دايك . . ولكن أروع ما شاهدنا فى مدريد قصر الاسكوريال ، وهو فى الضواحي ، على بعد ساعة على ما أذكر ، بالسيارة من المدينة ، ولقد شيده الملك فيليب الثانى ، واستغرق بناؤه أعواماً طويلة . . وبه سرداب يضم رفات ملوك أسبانيا الكاثوليك ، وقد وضعت فى توابيت نفحة من المرمر الخالص ، وهى آية فى دقة الصنع وللأسكوريال مكتبة عظيمة ، رأينا ضمن

محتوياتها بعض المخطوطات العربية . وقد أثرت في نفوسنا رؤيتها ..

مما لفت نظرنا أيضاً هناك غرفة نوم فليب الثانى .
فهى على جانب عظيم من البساطة . إذ خلت من كل زينة
بل طليت جدرانها بالجير ! .. وذلك مع ما كان لهذا العاهل
الكبير من جاه وسلطان .. والسبب فى هذه البساطة يرجع
إلى أخلاق الرجل . إلى تقشفه . بل إلى تدينه . ولو أنه كان
متعصباً فى هذا الدين ، بل كان قاسياً ، فى عهده نشطت
تلك الهيئات الدينية الممقوتة المعروفة بمحاكم التفتيش ، التى
كان يقدم إليها كل من أتهم حقاً أو ظالماً بالكفر . والكافر
فى نظر القوم كل من لم يكن مسيحياً كاثوليكياً . والتعذيب
فيها ، كان على أنواع شتى يفوق فى القسوة كل ما يتصور ؟
والعجيب فى أمر هذه المحاكم أن أعضائها كانوا من كبار
قساوسة أسبانيا إذ ذاك ! وربما كان أبى متأثراً بعدما عرف
الكثير من أمر تلك المحاكم ، عندما قال فيما بعد ، فى قصيدته
فى توت عنخ آمون ، وذلك فى باب الدفاع عن الفراعنة
الذين شهر بهم بعض كتاب الغرب من أجل تسخيرهم مئات

الآلاف من العمال في تشييد مقابرهم ومعابدهم الفخمة :

ولست بقائل ظاموا وجاروا

على الأجراء أوجلدوا القطينا^(١)

فإننا لم نوق النقص حتى

نطالب بالكمال الأولينا

وما (البستيل) إلا بنت أمس

وكم أكل الحديد بها سجيننا

وربة يبعة^(٢) عزت وطالت

بناها الناس أمس مسخرينا

مشيدة لشافي العمى عيسى

وكم سمل^(٣) القسوس بها عيوننا!

وأهل مدريد يحبون المرح كثيراً كما يحبون الجلوس

طويلاً في المقاهي ، بل هم يقضون معظم أوقاتهم فيها وهم

يتناقشون في السياسة ، التي هي شاغلهم الأكبر ، والأسبان

أكثر الشعوب أحزاباً ، فالحزب الملكي عندهم مثلاً ينقسم

إلى قسمين : قسم يناصر أسرة البوربون وقسم مع أتباع

(١) الخدم . (٢) الكنية . (٣) سمل العين فقأها .

الدون كارلوس . هذا فضلا عن الجمهوريين ، والعسكريين ،
والشيوعيين ، والفوضويين الخ . .

لذلك كانت الاضرابات والثورات كثيرة هناك ،
وآخرها تلك الحرب الأهلية الدامية التي قامت في سنة ١٩٣٦
بين الفاشست والشيوعيين ، واستمرت نحو ثلاث سنوات .
أما نحن ، فقد رأينا في أثناء إقامتنا هناك ، ثورتين
خطيرتين بين العمال والحكومة ، اضطر الجيش فيهما إلى
استعمال مدافع الميدان ! ولما كانت مدريد محاطة بجبال
« الجودراما » القاحلة ، فإن جوها مع الأسف متعب ، ففي
الصيف حرها لا يطاق ، أما شتاؤها فهو مضرب الأمثال
في البرودة . وهناك مثل أسباني يقول : هواء مدريد في الشتاء
نفاذ إلى حد أنه يقتل الرجل دون أن يطفىء شعلة ، لذلك
زرناها نحن في فصل الربيع .

ومع ما كان من جمال مدريد وروعتها ، وكثرة
المتنزهات فيها والحدائق العامة المنسقة أجمل تنسيق ، لم
نمكث فيها طويلا ، إذ كان أبي متعجلا في السفر
إلى الأندلس ! . .

أول بلدة حللنا بها في أرض الأندلس كانت قرطبة..
ولكن يا نخبة الأمل ! إنها قرية كبيرة ليس غير ، فعدد
سكانها لم يعد يتجاوز الخمسين ألفاً ، كما أن طرقاتها ضيقة قدرة.
رب ! أهذه قرطبة التي كانت عروس الأندلس في
العهد العربي الزاهر ؟ أهذه حاضرة الإسلام التي كانت تضم
مئات المساجد والمدارس ، وقد بلغ عدد سكانها إذ ذاك
المليون ؟ أهذه كعبة العلماء والفقهاء التي كان يحج إليها من
جميع أنحاء العالم ؟ واأسفاه ! كل هذا قد ضاع واندثر كأن
الأرض قد أنشقت وابتلعتته !

لم يبق من تلك الآثار المجيدة في قرطبة سوى المسجد
الذي شيده عبد الرحمن الداخل ، وهو على الرغم من نوائب
الدهر ما زال يأخذ العيون بروعة عمده ورشاقته .. وكان
الملوك المسيحيون حينما استولوا على قرطبة ، قد حولوا
جزءاً منه إلى كنيسة ، ولكنني علمت أن الحكومة الأسبانية
في عهد الجمهورية قد أعادت المسجد إلى حالته العريضة
القديمة .. حقاً ! ما كان أصدق أبي حين قال لدى مشاهدته
قرطبة هذه البائسة المهجورة :

.. لم يرعنى سوى ثرى قرطبي
 لمست فيه عبرة الدهر خمسى
 يا وقى الله ما أصبح منه
 وسقى صفوة الحيا ما أمسى
 قرية لا تعد فى الأرض كانت
 تمسك الأرض أن تميد وترسى
 غشيت ساحل المحيط وغطت
 لجة الروم من شراع وقلس
 ركب الدهر خاطرى فى تراها
 فأتى ذلك الحمى بعد حدس
 فتجلت لى القصور ومن فيه
 لها من العز فى منازل قعس^(١)
 ما ضفت قطفى الملوك على نذل
 .. المعالى ولا تردت بنجس
 وكأنى بلغت للعلم بيتاً
 فيه مال العقول من كل درس

(١) القعس : العز الثابت .

قدسا في البلاد شرقاً وغرباً
حجة القوم من فقية وقس
وعلى الجمعة الجلالة والنا
صر نور الخميس^(١) تحت الدرفس^(٢)
ينزل التاج عن مفارق دون
ويحلى به جبين البرنس
سنة من كرى وطيف أمان
وصحا القلب من ضلال وهجس
وإذا الدار ما بها من أنيس
وإذا القوم ما لهم من مُحسّ !
الح ...

ذهبنا بعد ذلك إلى أشبيلية وهي أكبر مدن الأندلس
في الوقت الحاضر . والمدينة جميلة ذات صبغة شرقية محضنة
فلكل منزل تقريبا فسقية تتوسط الحوش لترطيب الجو
كما هو الحال في بعض منازل دمشق . كذلك الشوارع

(٢) الدرفس : العلم الكبير .

(١) الخميس : الحيش .

داخل المدينة مغطاة بالخيم كي تحول دون الشمس في أيام القيظ .

ولأشبيلية متنزه جميل على ضفاف نهرها الشهير « الوادى الكبير » يقصده الأشبيليون فى الأصيل للتمتع بالنسيم العليل الذى ينبعث من النهر . . .

أما من جهة الآثار ففيها « القصر » الذى شيد فى العهد العربى ، ولكن زيد فى بنائه فى عهد الملوك الكاثوليك ، لهذا تجد طراز القصر خليطاً من الطرازين الشرقى والغوطى ولكن هذا الخلط لا يؤذى الذوق ، بل هو على العكس رائع . . . وللقصر حدائق غناء لا يمل المرء التجول فيها . . .

وإذا أردت أن تشهد مصارعة الثيران على أصولها فى أشبيلية ، إذ هناك يذهب سيداتها إليها وهن مرتديات ثيابهن الوطنية ذات الألوان الزاهية . . .

والأسبان جد فخورين بأشبيلية هذه ، كما أن هناك مثلاً يقول : إن من لم يشهد أشبيلية لم يشهد العجب !

وأشبيلية هى التى أوحى إلى أبى روية « أميرة الأندلس » ، فى « قصرها » المذكور التقى أبى بالأطياف

المحبوبة لروايته : المعتمد بن عباد .. الذى اشتهر شاعراً
أكثر مما اشتهر ملكاً . الرميكية زوجته ، وهى شاعرة
مثله ، العبادية أمه .. التى حنكتها حياة القصور ، بثينة بنته
وهى الأميرة العصرية المثلى .. الخ ..

حللنا بعد ذلك بغرناطة .. التى كانت آخر معقل
للمسلمين فى أسبانيا .. وبها أجمل ما بقى من القصور العربية
قاطبة فى تلك الديار الا وهو : الحمراء ، والجرء سميت هكذا
نسبة إلى ابن الأحمر مؤسسها ومؤسس دولة بنى الأحمر
فى غرناطة ونواحيها ، وهى مبنية على آكام يصعد إليها فى
نحو ربع ساعة بالقدم من حاضرة غرناطة . وهذه الآكام
يشرف عليها الجبل الشهير المعروف « بالشير انقادا » ..
الذى لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاءً ، مما جعل أبى يقول :
جلل الثلج دونها رأس (شبرى)

فبدا منه فى عصائب برس

سرمد شبيه ، ولم أر شيئاً

قبله يرجى البقاء وينسى

أما القصر نفسه ، فأية في الروعة والجمال بحجره
الرحبة الواسعة ، ونقوشه الدقيقة ، وفسيفسائه الملون . .
وأجل هذه الحجر ، الحجرة التي يقال لها مجلس السفراء ،
وفيهما كان ملوك بني الأحمر يقابلون رسل ملوك الإفرنج
وسفراءهم ، والحجرة المذكورة مفروشة بالرخام ومزينة
الجدران بأحسن النقوش وأبدع الخطوط . . ومن نوافذها
يطل الناظر على حى البيازين . . وكان من أعمار الأحياء
في عهد العرب . . أما الآن فيقطنه « العجبر » . . وهناك
الحجرة التي يقال لها مجلس السباع . . وذلك لأن في وسطها
حوضاً تحيط به وتوليه ظهورها سبعة من التماثيل كلها على
صورة الأسد وهي تمج الماء صافياً عذباً . . وهي التي وصفها
أبى بقوله :

مرمر قامت الأسود عليه

كلّة الظفر لينات المجسّ

تنثر الماء في الحياض جمانا

يتنزى على ترائب مُأس

وكان بالجرء مسجدان : أحدهما كبير ، والآخر أشبه

بالزاوية : فأما الكبير فقد حوله ملوك الإفرنج إلى كنيسة
فتغيرت معالمه إلا صخره وحجره . والآخر وهو أصغرهما
لا يزال على حالته ، وهو بديع الشكل يكاد يحجب الصلاة
إلى تاركها ، وهو حجرة واحدة قليلة المساحة عليها قبة من
أضخم القباب وأنخمها وأحسنها زينة وأزينها حلية ..

ولما كانت تحيط بالجرء غابة مترامية ذات رياض ناضرة
وخائل زاهرة ، فقد رأى الأسبان أن ينشئوا فيها فنادق
للسياح ، وقد أقمنا في أحد هذه الفنادق .. وكان يدعى
فندق وشنطون أرفنجج وهو اسم كاتب أمريكي شهير أحب
الجرء فكتب عنها قصصا كثيرة ..

وقد تعرفنا في هذا الفندق بضابط أسباني ، وأسرته
على كثير من الدعة والظرف ، ولما كان هذا الضابط شديد
السمرة فقد قال له أبي إن لونه عربي ، فأجاب هذا نخورا أنه
في الواقع من أصل عربي ، وأنه على حسب شجرة أسرته
يجري الدم العربي في عروقه ، غير أنه ليس دماً عربياً عادياً
بل هو دم الأمويين الأمجاد !

وتوجد في بهو الفندق المذكور صورة كبيرة بالزيت

تمثل الملك أبا عبد الله آخر ماوك غرناطة وهو يسلم في خضوع
مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك . ويقال إن عبد الله
هذا قد أجهش بالبكاء وهو يغادر أرض الأندلس ، فقالت
له أمه عائشة التي كانت في صحبته : إبك الآن بكاء النساء .
الملك الذي لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال .

ويطلق الأسبان على الربوة التي سقطت عليها دموع
أبي عبد الله : زفرة العربي . .

وقد أشار أبي في سينيته إلى أبي عبد الله هــذا

إذ قال :

ومفاتيحها مقاليد ملك

باعها الوارث المضيع بيخس

خرج القوم في كتائب صم

عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشا وكانت

تحت آباءهم هي العرش أمس

ربّ بان لهادم وجوع

لمشت ومحسن لمخس

إمرة الناس همّة لا تأتي

لجبان ولا تسنى لجبس^(١)

وإذا ما أصاب بنيان قوم

وهي خلق فإنه وهي أس

طالما زعم العامة في هذه البلاد وجاراهم بعض الخاصة
من الكتاب حدوث أمور حول الحمراء في زمن العرب ،
وبعضها أشبه بالخرافات منها بالحقائق ونحن نورد لك شيئاً
منها على سبيل الفكاهة ، فمن ذلك أنه كان منذ أزمان بغرناطة
ملك من ملوك العرب يسمى ابن جبوز ، وكان شجاعاً ،
ولكن لم يلبث أن ترك حياة المعارك والوقائع وآثر المعيشة
في ظل الدعة والسكون ، وكان كثير الأعداء لأنه أطال يده
بالقتل في أيام شبابه ، فكان خوف الملك من جهمتهم مستديماً
وقلقه مستمراً ، ولذلك وضع الجنود والحراس في كل ناحية
من غرناطة . ففي ذات يوم وصل غرناطة شيخ من علماء
العرب يقال له إبراهيم بن أبي أخيب من سلالة الصحابة
كان جده صحابياً في جملة الذين فتحوا مصر مع عمرو بن

(١) الجبس : الجبان .

العاص . وهذا الشيخ قد اخترع دواء من تناوله عاش مئتي سنة ، وكان هو — في زعم الرواية — قد بلغ هذا العمر . فلما ورد غرناطة احتفل الملك به وبالع في الرفع من قيمته ، وأراد أن ينزله بجانب من قصره ، فامتنع واكتفى ببيت أرضى بظاهر البلد ، فأعطاه الملك إياه ، وحمل إليه جميع ما يحتاج إليه . ففي بعض اجتماعاته بالملك شكى إليه هذا كثرة الأعداء والتعب بالاحتراس منهم . فقال الشيخ : إعلم أيها الملك أنني وجدت في مدينة برزة بمصر تمثالاً خروفاً وديكاً مصنوعين من النحاس ومنصوبين على وادي النيل ، فعرفت من عجيب شأن الأول أنه يتحرك ويميل نحو الناحية التي يأتي الخطر منها ، فإذا فعل ذلك احترس الحكام واستعدوا للدفاع . وأما الديك النحاس فيصيح في مثل تلك الحالة « الله أكبر » فيعرفون كذلك أن هناك خطراً مهدداً . فقال الملك : ومن لي بهذين كليهما أو أحدهما ، فلو ظفرت بذلك لبت الليالي الباقية من عمري ناعم البال هادئ المضجع ، فعاد العالم فقال :

لما فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر وصارت

للعرب وكنت بها، اختلطت بأهلها لتعلم علومهم والاطلاع على أسرارهم ، فعلمت من عالم من علمائهم أن في الأهرام كتاباً من كتب أسرار الحكمة لو اضعه سلومون ، ولكن دون الوصول إليه خرط القتاد ، فاستصعبت حينئذ بعض جنود المسامين ودخلت الهرم بعد ملاقة صعوبات جمّة وجعلت أبحث عن الكتاب المذكور حتى وجدته . فقال الملك : أنت والله يا ابن أبي أخيب العالم جد العالم ، ولكن بماذا ينفعني كتابك بما أنا فيه ؟

قال : سترى أيها الملك ، ثم شرع في بناء برج عال تلقاء البيازين ونصب عليه تمثال رجل عربي من نحاس ، وإذا يده تتوجه من نفسها إلى كل ناحية يقبل منها العدو . ولما وقعت إشارته مرة إلى الشيرا جبل الثلج المشهور ، أراد الملك أن يرسل جماعة من الجند إلى حيث أشار التمثال بيده ليطاردوا العدو إن كان هناك عدو كما زعم التمثال ، فقال العالم : أرح الجند من هذا أيها الملك فما بك إلى قتال العدو من حاجة فإنه مقتول من نفسه ، وإن أردت أن تثبت من ذلك فاصعد معي إلى البرج ، فصعدا معاً ووقفوا على مائدة

هناك من الخش ، ثم قال له العالم : خذ هذه العصا واضرب بها على هذه المائدة فإنك ترى العجب العجيب . فأخذ الملك العصا وضرب بها على المائدة فتمثل له في صفحتها الأعداء من الإفرنج وهم يتساقطون قتلى بلا قتال . وبعد ذلك ييسر نعى إلى الملك أن جيشاً عظيماً من الإفرنج قد انهزم وتبدد على وجهه غامض غريب ، ففرح الملك بذلك فرحاً عظيماً وقال الآن يطيب لى النوم . ثم قال للعالم : أيها الرجل اقترح ، فإن تجدنى مقصراً في مكافأتك .

لا أسألك أيها الملك إلا أن تأمر بحجرتي فتوسع وتفرش بالطنافس التركية .

قال الملك هذا مطلب هين ، فسل أكثر منه وأعظم ؛ فإنك تجاب إلى جميع ما تطالب .

قال ليأمر لى الملك بوضع قيان ، وليأمر باختيارهن من ذوات الحسن والجمال ؛ فإنى — كما يعلم الملك — فيلسوف فروية الجمال تزيدنى نشاطاً وعملاً صدرى سروراً وتخفف على وطأة السن حتى تكاد تعيد شيبى شباباً . وما زال الفيلسوف فى ضيافة الملك بأنعم بال وأحسن حال لا ينتهى

من علومه ومباحثاته . والملك في هذه الأثناء يحارب أعداءه
ويكافحهم بمساعدة التمثال وبدون اقتحام، إلى أن نظر الملك ذات
يوم إلى التمثال وقد تحركت يده متجهة إلى جبل « جواداكي »
فنظر في المائدة فلم ير شيئاً فأدهشه ذلك وبعث بالجند إلى
تلك الناحية ليوافوه بالخبر فعادوا إليه يسوقون فتاة بارعة
الجمال قد وجدوها هناك ولم يجدوا شيئاً سواها . فسألها
الملك : من الصبية أنت وماذا أتى بك إلى تلك الجهة ؟

فقالت الفتاة : أنا بنت أمير من أمراء النصارى انهزم
عنى جند أبى وتركونى وحيدة شريدة حتى وقعت فى يد
الأسر، وقد كان انهزام قومى بلا حرب ولا قتال ولكن
بمعجب من القضاء والقدر . فقال العالم وكان حاضراً :
احذرها أيها الملك ولا تكن لك فتانة ؛ فإن بنات الإفرنج
جالبات الشرور مخربات لعوامر الدور .

قال الملك : إنك يا ابن أبى أخيب رجل علم وفلسفة
ولست رجل حسان وغوان ، فدع لى أمرها أنا أعلم به منك
فقال العالم : أنت تعلم أيها الملك أنى خدمتك باختراعاتى
السحرية وعلومى السرية أعظم خدمة تؤدى إلى الملوك

أمثالك . فإن أردت أن تكافئني على ذلك بأن تهب لي هذه الجارية فمت بحق ووفيتني أجرى ، فقال الملك : لقد أهديت إليك من القيان البوارع والحسان الروائع ما أحسبه يغنيك عن هذه الغانية . فأجابه العالم : صدقت أيها الملك ، وشكر إحسانك لا يؤدي ، ولكني أتحكم في مكارمك فلا أبتغي أن تنعم علي إلا بهذه الفتاة . فغضب الملك وقال : إذن فاذهب ملعوناً من الرحمن مصحوباً بالشیطان ، فإنني لا أنزل لك عن هذه الحسناء التي أنا بها أحق وهي لي أليق . فلم يزل به العالم متوسلاً مستعطفاً فلم تقبل منه ضراعة ولا لان إليه قلب الملك حتى يئس منه فخرج قاصداً حجراته منكسر القلب .

فلما كان في بعض الأيام عصفت الفتنة في غرناطة وهبت بها الثورة وخرج الناس على الملك وحظيته الإفرنجية ، وكانت قد أضرت بيت المال واستنفدت ما فيه بنفقاتها الواسعة ومقترحاتها الفادحة ، وهجم الثوار على القصر ودخلوه شاهري السلاح . وكان التمثال قد بطل سحره وانقضى أمره فلم تكن يده تتحرك ولا تشير دالة على مفاجأة الحادث

الخطير إلا أن الملك نهض في وجه الثوار وقاومهم بحرسه
ورجال قصره فهزمهم، ثم سار إلى ابن أبي أخيب في منزله
وقال له : ما العمل أيها العالم وما نصيحتك لنا ؟ .
فقال : أن تدع هذه الكافرة .

قال الملك : أما هذا فليس إليه سبيل فانظر غيره .
قال : إذن تفقدها وتفقد الملك معها .
فقال الملك : أنا لا أرغب إلا في عيشة هادئة .
فقال العالم : أسمعت بجنات إرم التي تتغنى العرب
بوصفها ؟

فقال الملك : كيف لا وهي منعوتة في «سورة الفجر»
فقال العالم : كنت في زمن الشباب أرعى على جمال
لأبي . وكنت في قومي فتركونى وفقدت أثرهم ، فما زلت
أسير في طلبهم حتى اعترانى كلال ، فعمدت في الطريق إلى
نخلة عند بئر غائرة الماء فاضطجعت في ظلها وأخذتني السنة
ثم انتهت فإذا أنا أمام مدينة قد دخلتها وإذا هي نخمة الشوارع
كثيرة الأسواق ، ولكن السكون سائد عليها فجعلت
أتنقل فيها حتى انتهيت إلى قصر شاهق ذي حديقة غناء ،

ثم جاوزت المدينة إلى ضواحيها فصادفت هناك شيخاً
درويشاً، فسألته عن البلد وقلت أين أنا؟ فقال: أنت بجنات
إرم. ثم مررت الشهور وانقضت الأعوام وظفرت في مصر
بكتاب أسرار الحكمة لسلومون، فرجعت إلى ذلك المكان
ونزلت عليه بذلك القصر قصر شedad بن عاد وأقيمت أياماً
بتلك الجنة.

فقال له الملك: ابن لي قصرًا مثله ولك ما تسأل.
قال العالم: بل تعطيني أول دابة تدخل القصر فأخذها
وما عليها من أحمال، فقبل الملك ذلك. وحينئذ شرع العالم
في بناء القصر حتى آتته، ثم أتى إلى الملك فقال له: هأنذا
أيها الملك قد فرغت من البناء.

قال: وأنا سأنزله غداً إن شاء الله.

فأما كان الغد توجه الملك والعالم والفتاة الإفريقية
قاصدين القصر على دوابهم، فأما بلغوا مدخله أشار الشيخ
إلى باب عليه قفل وقال هذا أيها الملك هو مفتاح الجنة فأبجز
الآن ما وعدتني وادفع إلى الدابة وما حملت وكانت الفتاة قد
سبقت الجميع على مركبها السريع، فضحك الملك. فقال

العالم . ما يضحكك أيها الملك؟ أأست وعدتني بأنك إن بنيت لك القصر على ذلك المثال أعطيتني أول دابة تدخله بما عليها من أجمال وأثقال؟ فقال الملك . مه يا ابن الصحراء أتخدع سيدك؟ .

قال العالم : وأنت أيها الملك أملكك هذا الصغير القليل ترجو أن تحكم في نجي سامومون وحامل أسرار حكمته تمتع مابدا لك بهذا القصر ثم جذب بعنان دابته وضرب به الأرض فانشقت وتواري هو والحسنة . فأمر الملك ألف عامل أن يبحثوا في الأرض حيث احتجب الشيخ والجارية فذهب سعيه سدى ولم يلقوا له على أثر . وفي هذه الأثناء تحركت يد التمثال مشيرة إلى الموضع الذي تولى العالم إليه واحتجب فيه ، وبعد ذلك بأيام استأذن رجل على الملك فأذن له ، فأخبره أنه عثر على ثقب في الأرض ونظر منه فرأى ذلك العالم مستلقياً على أريكة يتلذذ بنغمات الطنبور الشجية التي تحركها أنامل الأميرة المختفية . فسار الملك إلى موضع الثقب فوجده منسداً فعالج فتحة فاستعصى عليه ، لأن تلك اليد الساحرة كانت قادرة على إحكام سده .

وأما قمة الجبل التي اختيرت لتشييد القصر وإنشاء البستان
فعادت قاعاً صفصافاً . وتناولت السنة الناس هذا الحديث ،
فمنهم من يقول جنون الملوك ، ومنهم من يقول فردوس
المجانين . ولما شاع الأمر وذاع الخبر وعلم الأعداء أن التمثال
لم يبق على ما كان عليه من حراسة الملك وحمايته في الشدائد
هجموا على مملكته من كل جانب حتى مات بين حروب
لم تهدأ جهرتها في الخارج ولا في الداخل . وعلى ذلك الموضع
الذي احتجب فيه الساحر والجارية بنيت الحمراء بعد مرور
أزمان طويلة ، فيزعمون أنهما لا يزالان في قيد الحياة باقين
تحت الباب المعروف بباب القضاء ، يزعمون أن الحراس
كثيراً ما يسمعون حتى الآن غناء شجياً بالليل خارجاً
من ذلك الموضع ، وأن الأميرة لا يزال في أسر ابن أبي أخيب
وستظل كذلك حتى تقوم الساعة ما لم تعد تلك اليد الساحرة
القادرة فترفع السحر عن تلك الناحية .

ومن خرافاتهم أيضاً أنه كان في قديم الزمان شاب
أسباني يدعى لوبه سنشه ، وكانت إقامته بالحمراء ، فكان يتعهد
بساتينها الناضرة ويتنقل فيها غرداً مسروراً ، وكانت له

زوجة وبنية بلغت الثانية عشرة من سنّها اسمها سانشيكا .
فاتفق في بعض الأعياد أن أتى إلى سنشه أصحابه
وأخذوا في اللعب والغناء ، فعثرت ابنة البستاني على تيمة
على هيئة اليد مقبوضة الأصابع فجاءت بها الجماعة وأرّتهم
إياها . فقال لها أحدهم اطرحيها ، وقال آخر إن هذا من صنع
العرب فلعلها من قبيل السحر ، وقال ثالث بل تعرضينها
على بعض الصاغة لعله يبتاعها منك وبينما هم كذلك إذ حضر
رجل كان قد قضى زمناً طويلاً في إفريقية ، فتناول التيمة
وبعد أن قلبها وأمعن النظر فيها قال : لقد رأيت نظائر
لهذه اليد في بربرية من قرى إفريقية وهي تنفع للوقاية من
إصابة العين ، ثم التفت إلى والد الصبية وقال أهنتك أيها
العزيز فإن ابنتك هذه سعيدة مرزوقة . وحينئذ تناولت
امرأة البستاني اليد وناطتها في عنق الفتاة فلما أبصرها القوم
أقبلوا يتجاذبون أطراف القصص والأحاديث عن العرب مما
سمعوه من آبائهم وأجدادهم . فقالت امرأة من الجمع متقدمة
في السن : لقد حدثت أنه يوجد على مقربة من هاهنا قصر
تحت الأرض لا يزال السلطان أبو عبد الله يسكنه بأهله

وحاشيته ، وكذلك توجد بالقرب من مكاننا هذا بئر
لو أعطيت الدنيا وما فيها بدل وقفة أقفها عليها ونظرة أرسلها
فيها لما قبلت يقولون إن راعياً سقطت له معزى فيها فنزل
في طلبها واستنقاذها فخرج منها مصفر الوجه وحكى
الأهوال التي شهدتها ووصف مآلتي من خيالات العرب التي
كانت تعبت به وتخرج به وهو في جوف البئر إلى أن وفق
للصعود . ثم اختفى الراعى بعد ذلك فلم تقع عليه عين ولم
يعرف له خبر . إلى أن عثر جيرانه ذات يوم على غنمه وهي
همل ترعى حوالى البئر ووجدوا عصاه وقبعته هناك .

وكانت ابنة البستاني في تلك الأثناء تصغى إلى الكلام
باهتمام ، حتى اشتدت رغبته في رؤية تلك البئر . فلما لبثت أن
تركت الجمع وتوجهت إليها . فلما بلغت وقفت ثم نظرت فيها
ثلاثاً وفي المرة الرابعة اعترأها خوف شديد . ثم ألقت حجراً
في البئر فسمع له صوت قوى . وعلى أثره تصاعد من البئر
غناء وأصوات موسيقية وجلبة جند . فانسحبت سانشيكا
من المكان مذعورة ورجعت إلى حيث كان أهلها فلم تجد
منهم أحداً ، فخرجت حينئذ قاصدة غرناطة . فلما صارت

بمقربة من الحمراء شعرت بتعب فجلست على أريكة من الخشب ،
حتى إذا انتصف الليل لم يرعها إلا جيش عربي عظيم
أبصرته وهو ينحدر من الجبال نحو الحمراء ، منهم حملة
الرماح ومنهم متقلدو السيوف ودروعهم تلمع في ضوء
القمر وتتقدمهم امرأة حسناء كسفة البال ووراءها السلطان
أبو عبد الله وهو جميل الصورة ظريف الثياب ، فنظرت
إليهم الفتاة من غير خوف ولا اضطراب حتى عبروا
وانتهوا إلى باب العدل من قصر الحمراء فتبعتهم حتى بلغوه ،
وهناك كان الحرسى نائماً فلم يوقظه مرور هذا الجيش
الكثيف بالقرب منه ، وظلت الفتاة تتبعهم ولم تقف
دهشة إذ وقع بصرها على حفرة في الأرض مفتوحة فبدأ
لها أن تنزل فيها ، فاما نزلت إذا مجلس مضاء بمصاييح من
الفضة والبلور وفي وسطه رجل متقدم السن وبجانبه امرأة
حسناء تعزف بالعود ، فتذكرت حينئذ الفتاة قصة العالم
العربي الذي سمعت عنه أنه لا يزال مخبئاً في باطن الأرض
مع امرأة إفريقية ، فرفعت المرأة الحسناء نظرها إلى الفتاة
وقالت : أهذا اليوم عيد القديس خوان ؟

فقلت نعم .

قالت إذن السحر لا يؤثر ، اقتربى منى أيتها الفتاة
وفكى عنى هذا الحديد ، فإني أرانى مطلقة هذه الليلة من
السحر . ثم خرجت الفتاة مع تلك المرأة إلى ميدان الأخباب
الذى كان الجيش العربى معسكراً به ، ثم سارتا إلى داخل
القصر حيث المجالس مفروشة بأنفر الأثاث ، وإذا مطابخ
الحمراء المتخربة منذ زمن طويل عامرة عاملة ، ومجلس السباع
غاص بالحرس العربى ، ومجلس العدل متحل بالسلطان أبى
عبد الله وبأهل بيته وخواص حاشيته . ومع كثرة الجمع لم
يكن يسمع إلا خرير الماء وهو يتساقط من أفواه السباع
فلما وصلتا إلى باب قومارس رأتا على كلا جانبيه جنية من
المرمر فأومأت المرأة إلى الفتاة أن تدنو منها فدنوت ،
فقلت لها : ها هنا سر عظيم سأطلعك عليه اعترافاً لثباتك
وشجاعتك ... اعلمى أن هذين التمثالين هما حارسان لكنز
خافه بعض ملوك العرب ، فاطلبى من والدك أن يحفر حيث
هما شاخصان ولا يمكن أحداً غيرك استخراجهما ، واطلبى
إليه أيضاً أن يقيم صلاة لأتخلص من السحر الذى أنا فيه ،

وأعطتها تاجاً من الذهب والزمرد لتتذكرها به ، ثم تركتها واختفت في الظلام . وأما الفتاة فجعلت تتمشى في جوانب ذلك القصر الفخم فلا تجد إلا خلاء إلى أن طلع الصبح ، فقصدت الغرفة التي يقيم بها أهلها فوجدتهم هناك . فلما استيقظ البستاني حدثته الفتاة بما رآته في ليلتها ، فقال لها : إنه حلم من الأحلام فأرته حينئذ التاج الذهبي فلم يسعه إلا تصديق روايتها وأشار عليها أن تكتم الأمر . ثم توجه البستاني إلى حيث التمثالان فلحظ أن نظرهما متجه إلى ناحية لا يحيد عنها ، فوضع علامة على ذلك المكان وانصرف وظل البستاني نهاره كله مشغولاً بأمر الكنز محاذراً أن يعثر عليه أحد غيره فلما جن الليل وسكنت الحراء سار البستاني ومعه ابنته إلى جهة التمثالين ، فلما دنوا منهما قال البستاني مخاطباً لها :

أيتها السيدتان الكريمتان بإذنكما أريد أن أريحكما من أمانة تحملانها بضعة أجيال ، ثم شرع يعالج المكان الذي ترك عليه العلامة بالأمس فانفتحت حفرة غير صغيرة وإذا فيها جرتان عظيمتان من الصيني ، فأراد أن يرحزهما

فاستعصتا عليه ، فدنت ابنته ولمستهما يديها فتحركتا طوع
يديها فأخرجهما البستاني فما كان أعظم دهشه وفرحه حين
رآهما مملوءتين ذهباً ، ثم حملهما في خفاء إلى غرفته ، وحينئذ
وقع في حيرة من أمره إذ رأى أنه إذا انتفع بذلك الذهب
وتمتع بالنعمة التي وصلت إليه لا يلبث أن يثير ظنون الناس
به ، وخطر اللصوص على باله لأول مرة ، وخشى أن تهتدى
أيديهم إلى موضع الكنز ، فصار نومه غير هادئ ، حتى
خيل لأصدقائه أن شدة همه ناشئة عن شدة فقره ، ولكن
منهم من لم تخف عليه الحال ، فعرف أن بلاء الرجل من المال
وكان القسيس الذي تعترف له امرأة البستاني يسمى
« فارى سيمون » وكان رجلاً يعتقد الجميع فيه الطيبة والخير
فذكر له الناس أمر البستاني ووصفوا له حادث غناه ،
واتفق أن حضرت ذات مرة امرأة البستاني إلى كنيسة
فقال لها : ألا تعلمين أن زوجك قد ارتكب جريمة ضد
الحكومة والكنيسة ، لأن الكنز الذي وجده كان دفيناً
في أرض للملك ، ولأنه من متروكات الكفار أخذوه من
الشیطان ، وعلى كل حال فلا بد من تلافي الأمر فأتيني الآن

بالا كليل ، فلما جاءت به قال لها إنه سيضعه في الكنيسة قربانا للقديس « فرانسيسكو » فما كان أشد فرح المرأة بذلك إذ أيقنت برضا السماء عنها ، فلما رجعت لمنزلها وحدثت زوجها بالخبر قال لها : ما أشد حمقك يا ثرارة ! فقالت له :
أأكان في وسعي أن أأكتم أبي ومرشدي الحقيقة !!
قال : لا ! بل كان ينبغي أن تقرى له بخطيئاتك فقط . ولما كان الغد خرج البستاني من منزله ، فحضر القسيس وقال للمرأة : اعلمي يا ابنتي العزيرة أن القديس قد تقبل دعائي وقال لي كيف تريد أن تتمتع بالكنز المكتشف في حين أن كنيسة على هذه الحالة من الفقر ، اذهب وخذ مقداراً من الكنز العربي باسمي واصنع لي به مصباحين كبيرين ، فلم يسع امرأة البستاني إلا أن تذهب إلى حيث الكنز وتعلم صرة ثم ترجع بها وتناولها القسيس ، فأخذها بعد أن بارك المرأة وانصرف .

فلما عاد البستاني إلى غرفته وعلم بما وقع استولى عليه الغضب ، ولكن امرأته بالغت في تهديته قائلة له : إنه لا يزال في قبضتنا القسط الأوفر من الكنز . ولكنه لسوء الحظ كان

القسيس يحضر كل يوم ويطلب شيئاً من المال تارة باسم
القديس « دومنجو » ومرة باسم القديس « أندرواز »
وحيثاً باسم القديس « سان تياجو » حتى لم يجد البستاني
مع ذلك بداً من الجلاء عن البلد ، فاشترى بغلاً جيداً
وربطه في نفق بمكان معروف بالبرج ذى الأراضى السبع
وكان يقال ان هذا المكان يخرج منه جواد اسمه « الفلوده »
لا رأس له فيجول في طرقات غرناطة ووراءه طائفة من
كلاب الشياطين . ولكن البستاني كان يرى أن هذا
حديث خرافة فلم يبال به بل بادر عند طلوع النهار إلى نقل
أسرته وواعدها أن يلتقوا بقرية من قرى « الفيحة » .

فأما جن الليل نقل ماله إلى النفق ثم حمّله البغل ونزل به
من « الالامده » المظلمة وكان قد احتفظ بسرّه ولم يكشف
أحدًا بعزمه ، فكان من العجب أن القسيس اطلع على خطته
ولما أيقن أن المال سيحتجب عنه إلى الأبد خرج عند
منتصف الليل من الكنيسة وتوجه إلى باب العدل
فأقام هناك مختبئاً بين الأشجار والأزهار ، فلم يكن
إلا هنيهة حتى سمع صلصلة الحديد ، وبالرغم من تكاثف

الظلام لمح شبح جواد ، فتهيأ للهجوم ثم هجم على الجواد
فوضع يده على كفله وقال : الآن نرى أيننا الفائز وما أتم
هذه العبارة حتى عدا به الجواد عدواً شديداً ، وتعسر على
القسيس النزول عنه وأصيب بجراحات شديدة في رأسه
من الأشجار والتفت وراءه فرأى الكلاب تتبعه فعلم حينئذ
أن ذلك الجواد هو « الفلودة » ومضى الجواد يطوف به
في جميع أنحاء غرناطة ثم عاد به إلى البرج حيث قذف به
إلى الأرض ثم توارى في الظلام . فلما كان الفجر مر به
عامل فحمله إلى منزله ، وسئل عما أصابه فقال إن لصوصاً
ضربوه وسرقوه ، وبعد أيام من ذلك فقد الإكليل وبحث
عن ذلك الكيس فوجد مافيه قد انقلب تراباً فحزن لذلك
حزناً شديداً .

ولقد اتفق بعد ذلك بيضعة أعوام أن مركبة يجرها
سبعة جياذ في « مالقة » صدمت أحد معارف البستاني . فما
كان أعظم دهشة الرجل إذ رأى أن صاحب المركبة الفخمة
هو صاحبه البستاني ، وكان ذاهباً في تلك الساعة ليحتفل
بزواج ابنته « سانشيكا » بأحد كبراء المملكة ، وكانت معه

في المركبة امرأته وابنته وخطيبها. فلما وقعت عين البستاني عليه سر بقاءه وأخذه معه ، فلبث في ضيافته أياما عدة ، ثم استأذنه في الانصراف فزوده كيساً من الذهب على أنه هدية له ولمن لهما بغرناطة من الأصدقاء ، وكان البستاني كلما سئل عن مصدر غناه يقول ميراث أخ له مات بأمريكا عن ثروة واسعة، ولكن حساده بغرناطة لا ينسبون ثروته إلا للكنز .

ومما يروى في هذا الباب أيضاً أن حرسياً سمع وهو يجلس السباع حركة أقدام تتنقل في مجلس بني سراج ، فذهب إلى حيث الصوت وإذا أربعة من أشرف العرب تدل هياتهم على المجد والعظمة . فلما أبصروه أومأوا إليه فولى منهم فراراً ، ثم لم يعد قط إلى الحمراء .

ويحكى أيضاً أن بعض أقارب ذلك الحرسى كان منوطاً به حراسة الحمراء ، فلبث بها سنة ثم تركها وذهب إلى مالقه حيث اشترى دياراً وضياعاً ، فكان الشائع على الألسنة أن أولئك الأشرف الأربعة أعطوا الرجل مالا جزيلا وقد

سمى ذلك المجلس بمجلس بنى سراج لأن نبلاء هذه الأسرة
قتلوا به غيلة .

ويزعمون أيضاً أن أهالى مراکش اليوم يعتقدون
أنه لا بد من مجيء يوم يصلى فيه المسلمون بمسجد قرطبة ،
وأن ملكاً من أمراء العرب سيسكن الحمراء ، وهم يسألون الله
ليل نهار أن يعيد غرناطة والأندلس إلى سلطان العرب .

نسيت أن أذكر قبل أن أختم هذا الفصل الخاص
بقامنا فى أسبانيا ، أن سمو الخديوى قد أرسل إلى أبى
فى أثناء إقامتنا هناك ، بما يفيد أنه إذا رغب أبى فى اللاحاق
بسموه فى فينا ، فسموه مستعد أن يخطر السفارة النمساوية
فى مدريد كي تيسر لأبى السفر فى إحدى الغواصات
الألمانية التى كانت تغدو وتروح فى موانئ أسبانيا لتأخذ
ما يلزمها من وقود وزاد . . وهذا على الرغم من وجود
الأسطول البريطانى (سيد البحار !) الذى كان يحاول عبثاً
أن يحول دون ذلك . . ولكن أبى اعتذر ، لأنه أولاً لا يميل
البتة إلى ركوب الغواصات . . ولأنه ثانياً لا يستطيع

أن يتركنا وحدنا في أسبانيا ، تحت رحمة انتقام السلطات
العسكرية في مصر ، إذا عامت ، بهذا الأمر .

عندما سمح لنا بالعودة إلى مصر في عام ١٩١٩ ، سافرنا
إلى جنوا بحراً ، ومن ثم ذهبنا إلى البندقية في السكة الحديدية
إذ كانت أول سفينة تغادر أوروبا إلى مصر تقوم من هناك
إذ ذاك . . وأبي كان متعجلاً في السفر إلى مصر ، إذ كان
حنينه شديداً إليها . . ألم يقل على أثر هذه العودة .

ويا وطني لقيتك بعد يأس

كأنني قد لقيت بك الشبابا

كذلك كان جدم مشوق إلى شمسها العظيمة التي كان
كلما تذكرها عذر المصريين القدماء بعض العذر . . على
اتخاذهم منها آلهة ! ولما بلغنا الإسكندرية كان في استقبالنا
هناك الأقارب والأصدقاء الأخصاء فقط ، وقد صعدوا جميعاً
إلى ظهر الباخرة ، وكان أحدهم معهما يلبس الجبة والقفطان ،
فلما رآته بنت أختي ولم تكن قد رأت هذا اللباس من قبل ،
إذ نشأت وترعرت في أسبانيا ، قالت لأبي في دهشة

وتعجب : جدى ، جدى أنظر إلى الرجل الذى يرتدى
فستاناً ! .

أما فى القاهرة ، فقد كان الاستقبال شاملاً رائعاً ، إذ
تجمع فى فناء المحطة آلاف الطلبة لتحية أبى ، ثم أخذوا
يهتفون بحياته فى حماس عظيم ، ثم حملوه على الأعناق
حتى السيارة ، وقد أثرت جداً فى أبى هذه الحفاوة من شباب
وطنه إلى حد أن كانت الدموع تترقرق فى عينيه طول
الطريق من المحطة إلى المطرية . . وقد قال فى وصف هذا
الاستقبال الرائع :

وحياً لله فتياناً سماحاً

كسوا عطفيّ من فخر ثياباً

ملائكة إذا حفوك يوماً

أحبك كل من تلقى وهاباً

وإن حملتك أيديهم بحورا

بلغت على أكفهم السحاباً

تلقونى بكل أغر زاه

كأن على أسرته شهاباً

ترى الإيمان مؤتلقاً عليه
 ونور العلم والكرم اللبابا
 وتلمح من وضاعة صفحته
 محيا مصر رائعة كعابا
 وما أدبى لما أسدوه أهل
 ولكن من أحب الشيء حابى
 ومما زاد فى فرح أبى أنه رأى بنى وطنه قد بعثوا
 من جديد ؛ وأن جهاده الطويل فى هذا السبيل من قبل قد
 تكلل أخيراً بالنجاح . وأن شبان الحمى قد صمموا على خلع
 نير الأجنبي المخزى ، بل هو دهش مبهور مما رأى .
 ها هو ذا يقصى نبأ هذه المعجزة على صديقه المرحوم
 عثمان باشا غالب الذى كان قد مات فى باريز من
 عهد قريب ؛

عثمان	قم تر آية	الله أحيا الموميات
خرجت بنين من الثرى	وتحركت منه بنات	
واسمع بتصر الهاتفين	بمجدها والهاتفات	
والطالبين لحقها	بين السكينة والشبات	

والجاء عليها قبلة عند الترنم والصلاة
 لاقوا أبوتهم على غر المناقب والصفات
 حتى الشباب تراهم غلبوا الشيوخ على الأناة
 وزنوا الرجال فكان ما أعطوا على قدر الزنات
 قل للمغالط في الحقا ثق حاضر منها وآت
 الفكر جاء رسوله وأتى بأحدى المعجزات
 عيسى الشعور إذا مشى رد الشعوب إلى الحياة
 غير أن أبي كان جد آسف على أنه لم يستطع أن يشترك
 في تلك الثورة المباركة بسبب وجوده بالنفى إذ ذاك ها هو ذا
 يظهر هذا الأسف في قصيدة نظمها بمناسبة إحدى
 ذكريات ١٣ نوفمبر :

...يوم البطولة لو شهدت نهاره
 لنظمت للأجيال ما لم ينظم
 غبنت حقيقته وفات جمالها
 باع الخيال العبقريّ الملمم
 لولا عوادي النفي أو عقباته
 والنفي حال من عذاب جهنم

لجمعت ألوان الحوادث صورة
مثّلت فيها صورة المستسلم

الخ...

ولكنه سجل أحداث هذه الثورة فيما بعد في كثير
من المناسبات . . فما قال فيها :

عطف العصر على نهضتكم
ولوى الناس عليها معجبين

ثورة أقبلت السلم بها
عجب الرائيين سحر السامعين

قام رهط منكمو فاقتحموا
كبرياء الفاتحين الظافرين

جحدوا السيف وردوا حكمه
عزّلا إلا من الحق المبين

همة تكتبها مصر لهم
إن أيتّم أن تكونوا الكتّابين

استخف الليث إجماعكمو
وهو ناب العجم الداهي الرزين

قد زأرتم زأرة أقمى لها
وأحال اللحظ فيكم يستبين
مستعيذاً منكم بالله أن
تصبحوا الهند وتمسوا «السين»^(١) فين»

نفر تأوى إليهم أمة
ووزير يتولى الشائرين
وشباب من رآهم عصابة
قال : نحل أوذيت بالمعتدين
زادهم « سعد » شباني هممة
كالخسام العضب والرمح السنين

الخ...

ومما قال فيها أيضاً ، والحديث عن ذكرى ١٣ نوفمبر :
صباحك كان إقبالا وسعداً
فيا يوم الرسالة « عم صباحا »

(١) رجال الثورة الأرنندية .

..جلالك عن سنا الأضحى تجلى
ونورك عن هلال الفجر لاحا
هما حق وأنت ملئت حقاً
ومثلت الضحية والساحا
بعثنا فيك هارونا وموسى
إلى فرعون فابتدأ الكفاحا
وكان أعز من روما سيوفا
وأطغى من قياصرها رماحاً
يكاد من الفتوح وما سقته
ينخال وراء هيكله فتاحا
ورد المرسلون فقليل خابوا
فيالك خيبة عادت نجاحا
أنارت غاديا من غايتيه
ولامت فرقة وأست جراحا
وشدت من قوى قوم مراض
عزائمهم فردتها صحاحا

كأن بلال نودى : قم فأذن
فرجّ شعاب مكة والبطاحا
كأن الناس في دين جديد
على جنباته استبقوا الصلاحا
وقد هانت حياتهموا عليهم
وكانوا بالحياة هم الشحاحا
فتسمع في مآتمهم غناء
وتسمع في ولائهم نواحاً
الخ...

من حسن حظنا أننا وجدنا منزلنا بالمطرية سالماً
لم يمس بسوء ، بعد هذه الغيبة الطويلة .. هذا إذا استثنينا
شجرة كبيرة من نوع الصفصاف أمر بقطعها أحد أقاربنا
بحجة أنها تؤذى جدار المنزل ، ولكن الواقع أنه فعل ذلك
كي ينتفع بخشبها ؛ إذ كان الخشب وقتها نادراً وأثمانه
مرتفعة جداً ..

وقد عزا أبي وقاية البيت وسلامته إلى بركة لوحة

كانت معلقة على المدخل ، مكتوب عليها : لا إله إلا الله
محمد رسول الله . لذلك عندما تركنا المطرية أخذنا هذه
اللوحة معنا فخلينا بها مدخل منزلنا الجديد بالجيزة ..

لم ترق لنا الإقامة في المطرية من جديد بعد عودتنا
من أسبانيا ، لبعدها عن المدينة ، ولصعوبة مواصلاتها ؛
لذلك فكرنا في الانتقال منها .. وإذا كنا قد أقمنا فيها
قديمًا فبسبب ذلك وجود سمو الخديوى في القبة إذ ذاك ..
كما أشرت إلى هذا آنفًا ؛ ولكن بعد ما تبدلت الأحوال ،
لماذا نبقى هناك ؟ .. أخذنا نفكر في المكان الذى نبني فيه
كرمة ابن هانيء الجديدة ، أين يكون ؟ شرعنا نعرض
الضواحي المرغوب فيها إذ ذاك ؛ فكرنا في الزمالك
ثم عدلنا عنها لأنها منخفضة ، مصر الجديدة ؟ هى فعلا
مكان هادئ وصحى ، ولكنه بعيد على الرغم من مواصلاته
الحسنة ، قصر الدوبارة ؟ هو مكان وجيه ولكنه مزدحم
بالمباني .. وأخيرًا اخترنا الجيزة مع أنها كانت في ذلك الوقت
قليلة العمران ، اخترناها لقربها من المدينة من جهة ولأنها
تطل على النيل المبارك من جهة أخرى .. إذ كان أبى دائماً

يحب أن يكون بالقرب منه ، لذلك كانت له فيه « ذهبية »
قبل الحرب أى وقت ما كنا نقطن المطرية .. كما كان يردد
هذا البيت ، وهو لأحد شعراء عصر الفاطميين عن تحييد
السكنى بالقرب من النيل :

إذا كنت فى مصر ولم تك ساكنا

على نيلها الجارى فما أنت فى مصر

كذلك اخترنا الجزيرة لقربها من الأهرام التى كان أبى
مغرمًا بها أيضًا ، إذ كان يحملنا على الذهاب إليها كل يوم
جمعة تقريبًا .. كنا نأخذ معنا طعامنا ثم نذهب إلى مقهى
صغير منعزل أمام فندق ميناهوس ، وكنا نختار هذا المكان
المتواضع لنكون أحرارًا ، إذ كنا نذهب فى عصبة بوهيمية
مرحة كثيرة الصخب من أدباء وفنانين ..

كان يحضر معنا فى هذه الرحلات المرحوم حافظ بك
إبراهيم الذى كانت صحبته جد مسلية ، غير أنه كان يضايقنى
« بالسيجار » الذى كان يفرض على تقديمه له ، كنت أشتري له
سيجارين كان الواحد بعشرة قروش وكنت أظن أنه نوع
جيد ، إذ لم أكن أفهم فى أنواعه ، غير أنه كان يرفضه

فى غضب ويطلب إلى شراء نوع آخر كان السيجار الواحد
منه بثلاثين قرشاً ..

سألنى حافظ بك مرة ، فى أثناء هذه الرحلات ، وكنا
قد فرغنا من تناول الطعام وشرعنا نتمشى فى الطريق
المؤدى من الهرم الأكبر إلى أبى الهول ، قائلاً : أتقول
الشعر ؟ فأجبتة : أجل ولكن قليلاً .. فقال : إذن قل شيئاً
فى الهرم أو فى أبى الهول فقلت :

أيا هرمى مصر سلامٌ عليكما ..

ولكنى لم أتمكن من تكلمة البيت ، عندئذ فكر
حافظ بك لحظة ثم قال :

سلامٌ مشوق منذ خمس إليكما

وهو يقصد بالحس ، السنوات الخمس التى قضيناها
بالمنفى .. كما أنشدته بضعة أبيات كنت نظمها فى مناسبة
أخرى ، فالتفت إلى أبى وقال : أتعلم يا شوقى أن ابنك
يرجى منه ؟ عليك أن تتعهد له ليصير شاعراً مطبوعاً ..
فأجاب أبى : إنى أفضّل أن يعنى هو بالثر لا بالنظم ؛ لأن
الشعر لا يتحمل الوسط ، وحسين لن يبلغ فيه القمة ..

فقال حافظ بك موجهاً إلى الخطاب : لا تطع مشورة أهلك
يا حسين ، إنه يقول ذلك لأنه غيران منك . إذ يخشى أن
تسبقه في يوم من الأيام ! . فقال أبي في مرارة : لماذا بربك
تريد منه أن يكون المسكين شاعراً ؟ لماذا ؟ أليسقى مثلنا
ويحرق أعصابه ؟

عرفت صدق كلام أبي بعد مرور عشر سنوات على
هذا الحديث عند وفاته ، لما سألت طبيبنا النمساوي عن سبب
الموت ، لأن أبي لم يكن متقدماً كثيراً في السن إذ توفي
في الثانية والستين ، فأجابني الطبيب بأن أبي ، وإن لم يكن
مسنّاً كانت أعصابه مع الأسف بالية ، كانت أعصاب شيخ
جاوز الثمانين .

وقد نظم أبي خلال إحدى هذه الرحلات
قصيدته المشهورة :

أبا الهول طال عليك العصر

وبلغت في الأرض أقصى العمر

وفيهما أيضاً يشير إلى النهضة الوطنية المباركة التي كانت

موضع نفخه وإعجابه منذ عاد من الأندلس ، إذ يقول :

... فهل من يبلغ عنا الأصول
... بأن الفروع أقتدت بالسير

وأنا خطبنا حسان الملا
وسقنا لها الغالى المدخر
وأنا ركبنا غمار الأمور...

... وأنا نزلنا إلى المؤتمر
بكل مبین شديد اللداد
... وكل أريب بعيد النظر

نطالب بالحق فى أمة
جرى دمها دونه وانتشر
ولم تفتخر بأساطيلها
ولكن بدستورها تفتخر^(١)

فلم يبق غيرك من لم يخف
... ولم يبق غيرك من لم يطر

(١) أى أنها مع ذلك لم تعز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك
ولكنها تمتاز بمقها الطبيعى الذى ليس إلا به كيانها :

تحرك أبا الهول هذا الزمان

... تحرك ما فيه، حتى الحجر !

ثم ما لبث أبي أن كف عن هذه الرحلات ، وبخاصة
بعد ما انتقلنا إلى الجزيرة وصرنا بالقرب من الأهرام ترى
من بيتنا بالعين المجردة .

تعلق أبي بعد ذلك بمدينة الإسكندرية ، فصار يقضى
فيها وقتاً طويلاً صيفاً وشتاء . ولكن هذه الهواية الجديدة
كلفتنا غالياً ، إذ اشترى قطعة أرض بالابراهيمية تطل على
البحر ، ثم شرع يبني عليها بيتاً صغيراً سماه « درة الغواص » ،
كما أنه اشترى عزبة في ضواحي الإسكندرية ، ثم رأى
أيضاً أن يشتري سيارة أخرى استخدم لها سائقاً خاصاً تظل
بالإسكندرية في خدمته ليذهب بها في زيارته للعزبة المذكورة
من دواعي الأسف أن أبي كان يخلط الخيال والشعر
بالشئون المالية ، وهما أمران متناقضان ... مثال ذلك : أنه
لما اشترى هذه العزبة ، وكانت صفقة خاسرة ، سأله أحد
أصدقائه عن مدى جودة تربتها ، فأجابه : لا بد أن تصبح

أرضاً طيبة لأن ابني حسين قد باركها ، إذ طاف حولها على
ظهر حمار ، كما فعل السيد المسيح . .

وكما كان يتفائل ، كان أيضاً يتشائم ، فكان إذا تراءى له
من بعد أحد معارفه الذين اشتهروا بمنحوس الطالع ، ركب
سيارته من فوره وأمر السائق بالانطلاق . .

كذلك كان يتشاءم من صوت البوم ، وقد أشار إلى
ذلك في رثائه للمرحوم العلامة على بك بهجت ، وكنا
يومئذ لا نزال نقيم في ضاحية المطرية :

أرقت وما نسيت بنات بوم

على المطرية اندفعت بكياً

بكت وتأوهت فوهمت شراً

وقبلى داخل الوهم الذكيا

قلبت لها الحذى وكان منى

ضلالاً أن قلبت لها الحذيا

رمى الغربان شيخ تنوخ قبلي

وراش من الطويل لها رويأ

نجا من ناجزيه كل لحم
وغودر لحمهن به شقيا
بل كان أبي قاسياً على البوم ، فقد خصها بقطعة
مستقلة ، إيكها :

(البلابل التي رباها البوم :)
أنبتت أن سليمان الزمان ومن
أصبي الطيور فناجته وناجاها
أعطى بلابه يوماً ، يؤدبها
لحرمة عنده للبوم يرعاها
واشتاق يوماً من الأيام رؤيتها
فأقبلت وهي أعصى الطير أفواها
أصابها العمى حتى لا اقتدار لها
بأن تبث نبي الله شكواها
فقال سيدها من دأبها غضب
وود لو أنه بالذبح داواها
فجاء الهدهد المعهود معتذراً
عنها يقول لمولاه ومولاها :

بلا بل الله لم تخرس ولا ولدت
خرسًا ولكن يوم الشئوم رباها

ولما سافرنا إلى فرنسا ، على وأنا ، لدراسة الحقوق ،
رافقنا إلى هناك حيث كان يقضى جزءاً كبيراً من الصيف
وبخاصة في باريز التي كان يحبها حباً جماً ، إذ درس هو أيضاً
فيها ، بل قضى تحت سمائها أحب فترة من حياته إليه ...
أى شبابه ...

كان أبى يذهب وهو في باريز يتروض كل يوم
تقريباً في غاب بولون ، لعله كان يبحث فيه عن أطياف ذلك
العهد الغابر السعيد ، بل لعله كان يحدث هذا الغاب ويذكره
بأيام الهوى والشباب ، بجولاته الغرامية فيه :

... هلا ذكرت زمان كنا .. م

... والزمان كما نريد ؟

نطوى إليك دجى الليلا

لى والدجى عنا يذود

فنقول عندك ما نقو ..

ل وليس غيرك من يعيد

نظفي هوى وصبابة

وحديثها وتر وعود

نسرى ونسرح فى فضا

ئك والرياح به هجود

والطير أقعدها الكرى

والناس نامت والوجود

فنبيت فى الإيناس يغ

سبطنا به النجم الوحيد

فى كل ركن وقفه

وبكل زاوية قعود

نسقى ونسقى والهوى

ما بين أعيننا وليد

من القلوب تمام

ومن الجنوب له مهود

والغصن يسجد في الفضا
ء وحبذا منه السجود
والنجم يلحظنا يعي
من ما تحول ولا تحيد
حتى إذا دعت النوى
فتبدد الشمل النضيد
بتنا ومما يئنا
بحر ، ودون البحر يد
ليلى بمصر وليها
بالغرب ، وهو بها سعيد

كما كان يحب كثيراً الجلوس في مقهى دار كور القائم
بميدان السوربون بالحى اللاتينى ، فى نفس المكان الذى كان
يجلس فيه وهو شاب . . . أى من ثلاثين عاماً . . .
حدثنا أبى عن ذكرياته فى هذا المقهى ، فقال : إنه
تعرف فيه بالشاعر الفرنسى الشهير ثرين الذى كان لا يكف
عن الشراب لحظة ، وكانت الخمر تتساقط على ذقنه
فلا يعنى بمسحها ؛ إذ كان شاعراً بوهيمياً . وكان طلبة

السربون الذين يمشون بين يديه وهو على تلك الحالة ،
يرفعون له قبعاتهم إجلالا له . في حين كان هو لا يشعر
بمكانهم ؛ إذ يكون ساجداً في عالم الشعر والخيال ..

وكان يحضر إلى هذا المقهى في ذلك العهد أيضاً ،
رجل غريب الأطوار إذ كان لا يضم إلى مجلسه من النساء
إلا المحترفات اللواتي فقدن شبابهن ، وكان يبالغ في إكرامهن
فإذا شاغلته فتاة حسناء أعرض عنها ! وقد تعرف به أبي
كي يعرف حكمته في ذلك ؛ ولما سأله عن سبب تصرفاته ،
قال : إنه يكرم المحترفة التي عبث بجمالها الدهر كي لا تشعر
بأنها فقدت شيئاً . . أما المحترفة الصبية الحسنة فالراغبون
فيها كثيرون ! ولقد كان هذا الرجل من كبار أطباء باريز
في ذلك العهد ..

وقد رحب بأبي المصريون الذين كانوا إذ ذاك يباريز ،
وأقاموا له الولائم ..

دعاه ذات يوم طبيب أسنان مصرى مقيم في باريز
إقامة مستديمة إذ كان يباشر فيها مهنته ، وقد قبل أبي دعوته
حينما أبلغه هذا الطبيب أنه سيهيء له أصنافاً مصرية يقوم

هو بنفسه بطهيها ، وكان أبى قد اشتاق إلى هذه الأصناف ..
وقد دعانا نحن أيضاً (أى على وأنا) إلى هذه الوليمة ، كما دعا
مصريين آخرين .. وبعد ما انتهينا من تناول الطعام الذى
أثبت فيه هذا الطبيب مهارته فى الطهى ، دعانا لنشهد العيادة
وكانت مجهزة أحسن تجهيز ، ولم يكن يؤمها مع ذلك أحد
من المرضى ؛ إذ كانت مهارة هذا الطبيب فى الطب دون
مهارته فى فن الطهى بمراحىل .. ثم أرانا خزانة مثبتة
فى الحائط ثم فتحها وأخرج منها فى إعجاب وزهو «رزمة»
شهادات فى الطب من .. الجبل الأسود ، ألبانيا ، الصرب !
فسأله أحد المدعوين ، وهو الأستاذ مجد الدين ناصف على
سبيل التهكم : ألا يخشى على هذه الخزانة من اللصوص ؟
فعلق أبى : لو اقتحم إليها اللصوص لأخذوا « خازوق » !
وكان هذا الطبيب يدعى أن مهارة أساتذة جامعة باريز
دون مهارته بكثير ، حتى أنهم — كما قال — كانوا يباشرون
عملية عويصة مجتمعين ؛ فإذا بهم يضعون مباحضهم وينصرفون
فلما سئلوا قالوا : جاء فلان !

وكان أبى وهو فى باريز يقضى معظم ليلاته فى مسرح

« الكوميدي فرانسيز » كي يزداد علماً في الفن المسرحي ؛
لأن المسرح المذكور هو أرقى المسارح الكلاسيك العالمية
تمثل فيه أهم الروايات المسرحية الشعرية التي ألفها كبار
الشعراء الفرنسيين المعاصرين والقدماء .. كان يواظب على
الذهاب إلى هناك ؛ لأنه كان يفكر إذ ذاك في عمل مسرحيات
شعرية ، وقد كان قد أخرج فعلاً في شبابه سنة ١٨٩٣
مسرحية شعرية وهي رواية على بك الكبير ، التي أعاد
نظمها في سنة ١٩٣١ إذ كانت قد عملت إذ ذاك في سرعة .
وكان يحثنا على مطالعة جريدة « الطان » وكانت من
كبريات صحف فرنسا المحافظة ، قائلاً إن فائدة مطالعتها
عظيمة ؛ ففيها مقالات قيمة جداً في العلوم والآداب ،
وبخاصة في السياسة الخارجية ، ويقول أيضاً إنه استفاد منها
شخصياً كثيراً إذ واظب على قراءتها طوال مدة إقامته
في فرنسا .. حين كان طالباً فيها ..

كان سمو الخديوي يقيم في باريز إذ ذاك ، فلما علم
بمقدم أبي أرسل يطلبه فأشار بعض الناس على أبي بالتخلف
إذ تضره هذه المقابلة .. ولكن أبي ذهب على الرغم من ذلك

إذ عد عدم ذهابه إليه قلة وفاء من جهة ، ولأنه كان تواقاً لرؤية سموه بعد هذه الغيبة الطويلة من جهة أخرى ؛ فقد كان أبي يحبه حباً جماً ؛ يقول عن سموه إنه فضلاً عن خفة روحه ، هو شعلة ذكاء ؛ وقد وصف أبي لنا هذه المقابلة فقال : إنها كانت مؤثرة ، فقد ضمه سموه إلى صدره طويلاً ، وقد اغرورقت عيونهما بالدموع ..

وقابل أبي هناك بعض الزعماء الشرقيين المنفيين ومن بينهم المرحوم الأمير شكيب أرسلان الذي سرّ ببقاء أبي سروراً عظيماً ، وقال وهو يعانقه : إن صداقتهما ترجع إلى أربعين عاماً .. ولكن أبي لم يسر لهذه الملاحظة لأنها تزيد في سنه كثيراً !

وقد أخرج الأمير شكيب عام ١٩٣٦ كتاباً عن أبي سماه « شوقي أو صداقة أربعين سنة » قال فيه إنه التقى بأبي لأول مرة في مقهى داركور في باريس عام ١٨٩٢ ، وكان أبي يدرس في مونبلييه وفي أثناء العطلة المدرسية جاء إلى باريس كما قال إنه هو الذي أشار على أبي بتسمية ديوانه « الشوقيات » ، ثم ذكر شعراً قاله أبي في صداقتهما إذ ذاك :

صحبت شكيباً برهة لم يفز بها
سواى على أن الصحاب كثير
حرصت عليها آنة ثم آنة
كما ضن بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء وتم لى
وداد على كل الوداد أمير
تفرق جسمى فى البلاد وجسمه

ولم يتفرق خاطر وضمير
ودعتنا الكاتبة الفرنسية چوليت أدام المعروفة بحبها
للمصريين وبمطفها على قضيتهم ، كما كانت الأم الروحية
للزعيم مصطفى كامل إلى تناول الشاى بقصرها . . وهو
قصر صغير أنيق فى ضواحي باريز ، وحضر هذه الحفلة
كثير من كبراء الفرنسيين من أدباء وحكام ، من بينهم
الكاتب الشهير كلود فارير الذى يعد من أشد أنصار المسلمين
عامة ، والترك خاصة ، كما حضر القائد الكبير جورو وكان
فى ذلك الوقت حاكم باريز العسكرى . . تناول الحديث
خلال هذه الحفلة القضية المصرية ، فأخذت السيدة چوليت

على الرغم من شيخوختها ، تتحدث ، بل تدافع عنها في حماسة
وكأنها فتاة في العشرين ! كانت متطرفة غير مقتنعة بالطرق
المشروعة التي اتخذها زعمائنا إذ ذاك سبيلاً لتحقيق الأمانى
القومية . . ضربت مثلاً بإيرلندا التي لم تنل حقها إلا بعد
تضحيات هائلة وجهاد مرطويل . . حقاً ! إن بين الفرنسيين
أناساً أحراراً بمعنى الكلمة ! إنهم خير خلف لأبطال ثورة
١٧٨٩ الذين بذلوا دماءهم في سبيل الحرية . .

وقد قابل أبى أيضاً في إحدى هذه الزيارات لباريز
المغفور له الملك فيصل ، وقد قدمنا إليه « على » وأنا . . كان
جلالته جم الأدب ، واسع الثقافة ، ودعا أبى إلى زيارته في
بغداد فوعده بتلبية دعوته ، ولكنه لم يذهب لصعوبة
المواصلات في ذلك الوقت في البر ، أما الجو فلم يكن أبى
يرتاح إلى ركوب الطائرة ، وقدماً قال فيها :
أركب الليث ولا أركبها

وأرى ليث الثرى أوفى ذمماً

ثم كرّر جلالته هذه الدعوة بعد ذلك بضع سنوات
(عام ١٩٣١) ، فلم يسع أبى إلا أن يرسل له تحية شعرية مع

المطرب الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب ، وكان قد سافر
إلى بغداد حيث نزل ضيفاً على جلالته ، وقد غنى عبد الوهاب
هذه التحية بين يدي جلالته ، وهي :

يا شراعاً وراء دجلة يجرى
في دموعي تجنبتك العوادي
سر على الماء كالسيح رويداً
واجر في اليم كالشعاع الهادي
وأنت قاعاً كرفرف الخلد طيباً
أو كفر دوسه بشاشة وادي
قف تمهل وخذ أماناً لقلبي
من عيون المها وراء السواد
والنواصي والندامى أمنهم
سامر يملأ الدجى أو ناد
خطرت فوقه المهارة تعدو
في غبار الآباء والأجداد
أمة تُنشئ الحياة وتبنى
كبناء الأبوّة الأمجاد

تحت تاج من القراية والملك .. م
... على فرق أريحيّ جواد

ملك الشط والفراتين والبطحاء .. م
... أُعْظِمُ بفيصل والبلاد
في ذلك الوقت كان يدرس في باريز مثلاً لبناني نابه
يدعى الحويك، وقد رأى أن يصنع لأبي تمثالاً نصفياً؛ وقبل
أبي بعد تردد طويل؛ إذ كان يبغض الجلوس طويلاً لهذا
الغرض .. ولما كان على أبي أن يبقى الساعات الطويلة كان
علينا أن نسليه وهو أمر مملٌ لنا؛ لذلك أحضرنا له (المرحوم)
الأستاذ خير الله الذي كان يحب الثثرة ليحل محلنا ..
والأستاذ خير الله هذا كان صحفياً لبنانياً قديراً مثقفاً .. وكان
محرراً في جريدة «الطان» .

وقد صنعت لأبي فيما بعد تماثيل أخرى، ولكن تمثال
الحويك الذي أشرت إليه الآن هو في اعتقادي خيرها جميعاً
وهو محفوظ لدينا ..

كنا ونحن في باريز، إذا عرضنا على أبي الانتقال
إلى مدن المياه أو إلى الشواطئ المشهورة حين يظهر الحر

في باريز ، كما يفعل أهل الوجاهة ، يرفض قائلًا إنه لا داعي لذلك ؛ لأن جو باريز صحي فهي تصلح للسكنى صيفاً وشتاء إذ هي على ارتفاع عظيم عن سطح البحر ..

وكان يفرض علينا الإقامة في فندق قديم معظم نزلاته مع الأسف ، من الشيوخ لوجوده في مكان هادئ منعزل وذلك لأن مديرته فتاة جمعت بين صفتين قلما تجتمعان في شخص واحد وهما : الحسن والذكاء ، كان أبي يحب التحدث إلى هذه الفتاة كثيراً لأنه ، مع تقدمه في السن ، كان قلبه فتيًا .. ألم يقل في كتابه (أسواق الذهب) : « تهرم القلوب كما تهرم الأبدان ، إلا قلوب الشعراء والشجعان » .

في عام ١٩٢٦ أقيمت أول حفلة ساهرة كبيرة بكرمة ابن هانيء الجديدة بالجيزة بمناسبة زواج أخى عليّ من بنت خالته . وقد تبارى الشعراء الحاضرون في إلقاء القصائد التي تناسب المقام ، فكانت الكرمية في تلك الليلة أشبه بسوق عكاظ ! أما أبي ، فقد وضع قطعة خصيصاً لهذا الحادث

السعيد ، وغناها الأستاذ محمد عبد الوهاب في الشهرة ، كما
سجلت بعد ذلك في الاسطوانات ، وهي :

دار البشائر مجلسنا
وليل زفافك مؤنسنا
إن شاء الله تفرح يا عريسنا
وان شاء الله دائماً نفرح بك

على السعادة وعلى طيرها
أدخل على الدنيا وخيرها
فرحه تشوف في ابنك غيرها
وتعيش لأهلك واصحبك

الشمس طالعه في التلى
ورده وعليها توب قلى
ملحه في عين الى ما يصلى
ولا يقـولشـى تنهى

حرّة تصونك وتصونها
وتقوم بدارك وشؤونها
وتشوف عيونك وعيونها
دخلة ولادك والحنّة

دنيا جميلة قوم خدها
ستك وبالمعروف سيدها
قوم ياعريسنا بوس إيدها
وصلّ واطلب واتمّنى

وقد تفضل سعد باشا بالحضور في زفاف علي ، ولكنه
جاء مبكراً وانصرف مبكراً وذلك خشية من رطوبة الليل .
وكان هذا تلطفاً من سعد ؛ لأنه لم يزر في عهده الأخير بيتاً
كما أنه لم يغش مجتمعاً .. وقد حضر في أثناء وجوده بالكرمة
مصورّ لالتقاط صورة لسعد وأبي ، فحدث أثناءها حوار
رقيق أبان عما يكنه سعد لأبي من تقدير صحيح وود مكن .
قال أبي إن الأستاذ الجدلي دبرّ كل هذا ، فابتسم سعد

وقال : إنه تدبير تسرى فيه روح أمير الشعراء . فقال
الأستاذ الجديلي : هذه صورة الخالدين . فقال سعد مشيراً
إلى أبي : « هنا الخلود » .

وقد قدمت الصورة إلى سعد بعد ذلك فتقبلها بقبول
حسن ، وأنشأ الأستاذ الجديلي المقطوعة التالية ، فنقشت
تحت الصورة ، ونصها :

يا صورة قد ضمنت بالمجد
يضع فيها عبقّ الندى
كرمت في طوافي وتلدى
تروين للدنيا معاني الخلد
من نفح شوقي وجلال سعد

وقد حظيت الكرمة الجديدة في نفس هذا العام
بزيارة شاعر الهند الكبير طاغور ، أقام له أبي حفلة تكريم
كبيرة دعا إليها كثيرين من الأدباء والكبراء ، وقد حضرها
الزعماء إذ كان الائتلاف السعيد قائماً بين الأحزاب إذ ذاك
وقد تفضل سعد باشا وكان رئيساً لمجلس النواب فأخّر

انعقاد المجلس ساعة كي يتسنى لحضرات الأعضاء المدعويين
عندنا تلبية الدعوة ، وهو تصرف كريم من سعد باشا أثر
في أبي أشد التأثير .

وقد كلفني أبي بالتوجه إلى فندق شپرد حيث نزل
طاغور لأصعبه إلى المنزل ، وقد حضر معه سيدتان هندية
أيضاً ، وكان الثلاثة يلبسون اللباس الوطني الهندي ، وكان
طاغور في هذه الملابس ، وبقامته الطويلة وشعره ذي
الحلقات الكثيفة .. كأنه أحد الأنبياء الذين ذكروا في
التوراة ..

سألني طاغور ونحن في السيارة ، في الطريق إلى المنزل ،
عن مؤلفات أبي هل ترجمت إلى الانجليزية ؟ فأجبتة بالنفي ،
لأنه لم يكن ترجم شيء منها إذ ذاك ؛ فجنون ليلي ترجمها
فيما بعد الأستاذ أربري عام ١٩٣٣

قال أبي لطاغور في أثناء حديثه معه إنه يغبطه إذ أن
عدد قرائه عظيم ، فالهند بلاد واسعة تضم أكثر من ٣٠٠
مليون من السكان .. فأجاب طاغور : حقاً ! إن الهند واسعة
ولكن مع الأسف كل ولاية فيها تتكلم لغة تختلف عن

لغة الأخرى ، لذلك أصبح من يفهمون كلامي لا يتجاوز
عددهم عشرة الملايين ! . ثم أضاف مبتسماً : بل أنت أحق
منى بالاعتباط ؛ فإن قراءك هم العالم العربي كله ! . وفي هذه
الحفلة غنى الأستاذ محمد عبد الوهاب لأول مرة القطعة
الآتية التي لحنها من رواية (مصرع كيلوباترة) .. التي كان
أبى يعدّها إذ ذاك :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا
ما لرؤحيننا عن الحب غنى
غننا في الشوق أو غنّ بنا
نحن في الحب حديث بعدنا

رجعت عن شجوننا الريح الحنون
وبعينينا بكى المزن الهتون
وبعثنا من نفاثات الشجون
في حواشي الليل برقاً وسنى

تَجَبَّرِي يَا كَأْسُ وَاشْهَدِي أَوْ تَرِ
وَارُو يَا لَيْلٍ وَحَدَّثِ يَاسُحَرِ
هَلْ جَنِينًا مِنْ رَبِّهَا الْأَنْسُ السَّمَرِ
وَرَشَفْنَا مِنْ دَوَالِيهَا الْمُنَى

الْحَيَاةُ الْحُبُّ وَالْحُبُّ الْحَيَاةُ
هُوَ مَنْ سَرَّحَتْهَا سِرُّ النَّوَاهِ
وَعَلَى صَحْرَائِهَا مَرَّتْ يَدَاهُ
فَجَرَّتْ مَاءً وَظِلًّا وَجَنَى

نَحْنُ شَعْرُهُ وَأَغَانِيُّ غَدَا
بِهَوَانَا رَاكِبُ الْبَيْدِ حَدَا
وَبُنَا الْمَلَاخُ فِي الْيَمِّ شَدَا
وَبَكَّى الطَّيْرُ وَغَنَى مَوْهِنَا

مَنْ يَكُنْ فِي الْحُبِّ ضَحِيًّا بِالْكَرَى
أَوْ بِمَسْفُوحٍ مِنَ الدَّمْعِ جَرَى

نحن قرّبنا له مُلْكَ الثرى
ولقينا الموت فيه هيناً

فى الهوى لم نأل جهد المؤثر
وزهبنا مثلاً فى الأعصر
هو أعطى الحب تاجىً قيصراً
لم لا أعطى الهوى تاجىً مِنّا؟

وقد سأل بعضهم الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد
باشا عن رأيه فى هـ القطعة فقال : أنا والله لا أحب
التكرار ، ولكن التكرار فى هذه القطعة حسن ..

كانت العلاقة بين سعد باشا وأبى فى ذلك الوقت على
أحسن مايرام ، وكان قد اعتراها فى الماضى شىء من الفتور
ويرجع الفضل فى إزالة الجفوة إلى مساعى الأستاذ الجدلى
الذى كان كل منهما يحبه ويقدره ..

كان أبى يذكر على الدوام عهداً كريماً كانت بينه

وبين سعد باشا ، وكان من أغلى الذكريات عنده « ساعة »
أهداها له سعد باشا في مناسبة كريمة ذلك أن أبي كان
بسويسرا والتقى هو وسعد باشا وقد كان سعد يختار هدية
الزفاف بأمر المصريين ، فاشترك أبي في الاختيار ، ثم اختار
في الوقت نفسه تلك الساعة وأهداها لأبي .

وقد ذكر لي الأستاذ الجديلي أن التقاء سعد باشا وأبي
لأول مرة كان مؤثراً إذ كان حاضره بل هو الذي مهد له .
تبادلا فيه ذكريات عزيزة وذكر أصدقاءهما في الماضي ،
وذكرا « نكات » عبد الكريم سامان ، وحفني ناصف ،
 واجتماعات الأميرة نازلي هانم ، وقاسم أمين ، واستطاب
سعد باشا المجلس واستزاد أبي من حديثه ..

أما الأستاذ الجديلي ، فقد تعرف به أبي على النحو
الآتي : كان أبي يتردد كثيراً في الليل إلى حلواني كان في
شارع فؤاد الأول يدعى « صولت » وكان يعجب بالشباب
الوطني وهم حول النقراشي باشا يستمع إليهم ويصغون إليه ،
فلفت نظر أبي شاب معمم ضئيل الجسم ولكنه لمع فيه
جسارة وأدباً ، فسأل عنه فقبل له : هو الأستاذ الجديلي

متخرج في مدرسة القضاء الشرعي ، وهو من خطباء
الثورة ، وله شغف بالأدب ، وقد ترك السجن السياسي من
ليالٍ ، وهو يردد في نهار قصيدتك فيه وفي إخوانه
المسجونين السياسيين ، التي مطلعها :

بأبي وروحي الناعمات الغيدا

الباسمات عن اليتيم نضييدا

والتي يقول فيها :

يا مصر أشبال العرين ترعرعت

ومشت إليك من السجون أسودا

قاضي السـياسة نالهم بمقابه

خشن الحكومة في الشباب عتيدا

أتت الحوادث دون عقد قضائه

فانهار بينة ودكَّ شهودا

الخ

وعند انقضاؤ السامر « بصولت » كان الأستاذ

الجديلي أيضاً يسأل عن أبي ويود أن يتعرف به ، فتلاقيا

عند باب « صولت » وحيّا كل منهما الآخر فتعارفا

وتواعدة التزوار... من تلك اللحظة أخذت صلات المودة تتوثق بينهما حتى أنه لم يكن يمضى يوم دون أن يمر أبى بالأستاذ الجدلي (بالمنيرة) فى طريقه إلى المنزل ظهراً أو مساءً ، وقد عهد أبى إليه فى تحليل رواية «قبيز» فوضع لها تعريفاً أدبياً دقيقاً ، كما عهد إليه أن يشرف على طبع بعض قصائد من الجزء الأول من الشوقيات . .

مما زاد فى محبة أبى لسعد باشا تفضل دولته بترشيحه لمجلس الشيوخ عن دائرة سيناء ، وقد اختارها له لأنها مهبط الديانات ومسرى الوحي . . كذلك لأن هذه الدائرة لا تحتاج إلى نضال حزبي . . وفعلاً انتخب أبى عن هذه الدائرة ، وكان انتخابه بالتزكية .

كان أبى كثير التردد إذ ذاك على « بيت الأمة » وكان يستصحبني أحياناً إلى هناك ، فكنت أذهب معه وأنا مغتبط لأن شخصية سعد باشا كانت جذابة جداً ، ولأن دولته كان يتفضل بملاطفتي .

وكان الدكتور محبوب ثابت قد تقدم فى ذلك الوقت

للانتخابات في إحدى دوائر الإسكندرية وانتخب فعلا
ضد مرشح الوفد.. ولكن بعد نضال عسير.. أما سعد باشا
فكان في دخيلة نفسه مع الدكتور محبوب إلا أنه لم يستطع
ترشيحه لأن تقاليد الوفد كانت تقضي بترشيح مرشح
الدائرة الوفدي السابق. ويوم نجاح الدكتور محبوب كنا في
«بيت الأمة»، فكلفني سعد باشا بالذهاب إلى المحطة لإحضار
الدكتور محبوب إليه بمجرد وصوله، فلما وصل جررته
جرأاً لأنه لا يتحرك من تلقاء نفسه وذهبت به إلى «بيت الأمة»
وهناك قبله سعد باشا مهتماً. فأجاب الدكتور على هذه
التهنئة بقوله: والله يا باشا لقد انتزعت الدائرة من مخالف
الأسد! فكان رداً جميلاً من الدكتور جمع بين الشناء
والكرامة.. لأن المقصود بالأسد رئيس الوفد..

أما صلة أبي بالدكتور محبوب فهي قديمة جداً،
ولكنها توطدت في تلك الفترة من الزمن، إذ صار الدكتور
من ضيوف «الكرمة» المزمين.. ولكنه مع الأسف
كان آخر من يحافظ على موعد غداء أو عشاء.. لأن
طباعه كانت بوهيمية إلى أقصى درجة!

وكان الدكتور محبوب عالماً واسع الاطلاع ، وبخاصة
في مسائل السودان ، كان يحفظ أسماء القبائل هناك واحدة
واحدة ، والمقاطعات السودانية يعرف أسماء كل قرية فيها
ولكنه مع الأسف لم يكن مرتباً في معلوماته . وما كان
أصدق سعد باشا حين وصفه بمكتبة غير منظمة . . كذلك
كان الدكتور يتذوق الشعر الجيد ، ولكنه كان يكسر
أحياناً الأبيات إذا أنشدها عن ظهر قلبه ، فيغضب أبى من
هذا ويلومه . .

وقد ظفر الدكتور محبوب من أبى بمقدار من الشعر
قاله فيه لم يظفر به صديق آخر . . ولكن بعض هذه الأشعار
كان يثير غضبه زاعماً أنه سوف يقضى على سمعة عيادته ،
وبخاصة الأبيات التالية فقد أخرجت الدكتور « محبوب »
عن طوره عندما ناولها أبى للأستاذ الجدبلى ليتلوها خلال
إحدى ليالى السمر بالكرمة ، إذ هم الدكتور بالانصراف ،
فهرول وراءه المدعوون ولم يرجع الدكتور إلا عندما صاح
في وجهه أحدهم قائلاً : ويحك يا دكتور ! كان الأولى بك
أن تفرح لا أن تغضب ، فقد ظفرت بشعر شوقى الذى

سيخلدك أبد الآبدن .. فهذا الدكتور ثانية وعاد إليه مرحة
وإليك هذه الأبيات :

براغيث محجوب لم أنسها
ولم أنس ما طعمت من دمي
تشق خراطيمها جوربي
وتنفذ في اللحم والأعظم
وكنت إذا الصيف راح احتجم
ت ... فجاء الخريف فلم أحجم
ترحب بالضيف فوق الطريق
... فباب العيادة فالسلم
قد انتشرت جوقة جوقة
كما رشت الأرض بالسمم
وترقص رقص المواسي الحداد
... على الجلد والعلق الأسحم
بواكير تطلع قبل الشتاء
... وترفع ألوية الموسم

إذا ما « ابن سينا » رمى بلغما
رأيت البراغيث في البلغم
وتبصرها حو « ييبا » الرئيس
... وفي شاريه وحول الفم
وبين حفائر أسنانه

مع السوس في طلب المطعم
وكان الدكتور محبوب مشهوراً بالتقتير ، وأظن أن
هذه الشهرة كانت على شيء من الصحة ، فإنني ما زلت أذكر
حصانه الذي سمي « مكسويني » لفرط هزاله . . . وهو
اسم بطل إيرلندي مشهور انتحر جوعاً . وإليك بعض
ما قال أبي في هذا الحصان البائس عندما استبدل به
الدكتور سيارة :

... ولا والله ما كلفت	محبوباً ولا باره
فلا البرسيم تدريه	ولا تعرف نواره
وقد تروى على « صلت »	إذا نادمت سماره
وقد تسكر من خود	على الإفريز معقاره
وقد تشبع يا ابن الد	يل من رنة قيثاره !

كما قال فيه أيضاً ذا كراً جهاده وجهاد سيده في القضية
الوطنية :

تقديك يا « مكس » الجياد الصلادم
وتفدى الأساة النطس من أنت خادم
كأنك إن حاربت ، فوقك عنتر
وتحت ابن سينا أنت حين تسالم
ستجزى التماثيل التي ليس مثلها
إذا جاء يوم فيه تجزى البهائم
فإنك شمس والجياد ككواكب
وإنك دينار ، وهن الدراهم
. . مثال بساح البرلمان منصب
وآخر في (بار اللوا) لك قائم
ولا تظفر (الأهرام) إلا بثالث
مزامير داود عليه نواغم^(١)
وكم تدعى السودان يا مكس هازلا
وما أنت مسود ولا أنت قائم

(١) يعني المأسوف عليه داود بركات رئيس تحرير الأهرام لذلك العهد .

وما بك مما تبصر العين شبهة
ولكن مشيب عجلمته العظام
كأنك خيل الترك شابت متونها
وشابت نواصيها وشاب القوائم
فيارب أيام شهدت عصابة
وقائعها مشهورة والملاحم !

كما أنى ما زلت أذكر يوماً قصدت فيه الدكتور في
العيادة لأريه دملاً يؤلمنى فى رجلى ، وكان الوقت ظهراً ،
فألح على فى البقاء لأتغدى معه فبقيت ، وكان قد استبقى
قبلى ثلاثة أشخاص ، أى كنا به خمسة ، وما كان أشد
دهشتى حين قدم لنا رطلاً واحداً من الكباب ! فضلاً عن
أنه كان يراقب المدعوين حتى لا يزدرد الواحد منهم أكثر
من قطعة واحدة من اللحم فى المرة !

كان هناك طبيب آخر يتردد كثيراً على الكرمية ،
على أنه لم يكن لا فى نبوغ طبيبنا النمساوى ولا فى خفة ظل
الدكتور محجوب ، وكان سبب تعلق أبى به وكثرة دعوته

إياه مهارته في فن الطهي ، فقد كان يحسن صنع الأصناف
الفرنسية إذ عاش في فرنسا طويلاً ، وبخاصة صحن
« البويابس »^(١) ، لأن أبي كان يتذوق الأكل الجيد مع
أنه لم يكن أكلًا . . أذكر أنه رأى أحد المدعوين عندنا
يأكل الديك الرومي في نهم وبشكل يثير الاشمئزاز . .
فامتنع عن أكل الديك الرومي بقية حياته !

وقد دعى عندنا في هذا العهد أيضاً السيد الشعالي
الزعيم التونسي الشهير ، فعلم منه أبي خلال الحديث أنه
يحيد صنع ذلك الطعام المغربي الشهير « بالكسكسي » فما
كان من أبي إلا أن استصحبه إلى المطبخ حيث صنع لنا
السيد الشعالي وجبة من « الكسكسي » كانت شهية حقاً ،
مع إننا في ذلك اليوم تناولنا غداءنا في الساعة الرابعة !

من الزعماء الذين أحبهم أبي وكان يذكرهم دائماً في مجالسه

(١) شربة بها كثير من أنواع السمك .

الخاصة المغفور له مصطفى كامل باشا ، وعلاقته به ترجع إلى
عهد الصبا . .

لدينا رواية ألفها مصطفى ، وهو طالب في مدرسة
الحقوق ، وقد أهداها إلى جدى لأبى وهى تدل على مدى هذه
الصلة ، وإليك صورة الإهداء : « هدية المؤلف لحضرة
والده الأجل على بك شوقى حفظه الله » (كامل) . . وهى
رواية تاريخية تمثيلية عن فتح الأندلس .

ويقول أبى إنه كان مع مصطفى عندما اختار شعاراً له
جملته المشهورة : لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ،
وكان مصطفى قد وجد الجزء الأول منها أى « لا حياة
مع اليأس » ، فأشار عليه أبى أن يضيف : ولا يأس
مع الحياة !

وكان أبى يعاونه فى كفاحه الوطنى المجيد ، وقد أشار
إلى ذلك فى قصائده ، وبخاصة فى القصيدة التى نظمها
بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى إذ قال :

.. أتذكر قبل هذا الجيل جيلا

سهرنا عن معالمهم وناما

مهار الحق بغضنا إليهم
شكيم القيصرية واللجاما^(١)
(لواؤك) كان يسقيهم بجام
وكان الشعر بين يدي جاما^(٢)
من الوطنية استبقوا رحيقاً
فضضنا عن معتقها الختام
غرسنا كرمها فزكا أصولاً
بكل قرارة وزكا مداً

كان المطرب الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب كثيراً
ما يصاحب أبي إذ ذاك ، وقد علمت من عبد الوهاب أن
أول مرة قدم فيها لأبي كان سنة ١٩٢٤ خلال حفلة أقامها
معهد الموسيقى الشرقي في كازينو سان استفانو بالاسكندرية
وقد كان أبي سمع عبد الوهاب قبل ذلك ببضع سنوات
عندما كان يغنى في مسرح « برنتانيا » وكان حدثاً في ذلك

(١) المراد بشكيم القيصرية ولجامها ، فسوء الاحتلال وجبروته .

(٢) اللجام لثاء من فضة

الوقت ، فتألم أبي لأن إرهاب الصوت في مثل هذه السن الصغيرة قد يقضى عليه . . لذلك اتصل بحكمदार العاصمة ورجاه أن يمنع غناء الأحداث على المسارح .

وجاءه مرة الأستاذ محمد عبد الوهاب وعلى وجهه مسحة من الحزن والألم ، فسأله أبي عن السبب ، فأخرج عندئذ محمد من جيبه بعض مجلات كانت تهاجمه ، فقال له أبي لا تحزن ، بل يجب أن تسر من ذلك ، لأن النقد يرفعك ويزيد في شهرتك ، وسأثبت لك ذلك بالعمل ضع هذه الصحف على الأرض وقف عليها بقدميك ، ففعل محمد ، فقال له أبي باسمي : ألم أقل لك إن النقد يرفعك ؟

من الأصدقاء الذين كان أبي يحبهم أيضا كثيرًا إسعاف بك النشاشيبي أديب فلسطين الكبير ؛ كان أبي يحبه لتحمسه للاسلام.. كأنه واحد من الصحابة أو الأنصار فضلا عن خفة ظله .. والغريب في أمر إسعاف بك هذا أنه إذا تحدث في مجلس خاص كان في وداعة الحمل ، فإذا اعتلى المنبر صار إعصاراً .. وقد وضع إسعاف بك كتابا في السنة التي توفي فيها

أبى أى سنة ١٩٣٢ سمّاه : « البطل الخالد صلاح الدين »
والشاعر الخالد أحمد شوقي »

من الشخصيات الأدبية اللطيفة أيضاً التى كان أبى
متصلاً بها فى ذلك العهد المغفور له الأمير حيدر فاضل ،
وقد كان شاعراً ممتازاً ، ولكن باللغة الفرنسية ..
صحبت أبى يوماً فى إحدى زياراته له ، وكان يقطن فى
منزل متواضع بشارع الملكة نازلى ، إذ كان سموه بعيداً عن
حب المظاهر ، وكان ينتظرنا فى مكتبه وهو متربع على ديوان
وثير ويرتدى عباءة خضراء وعلى رأسه عمامة ضخمة خضراء
أيضاً ، ولما كان سموه بديناً جداً وقصيراً فقد كان منظره
عجيباً .. أثار ضحكى ومن عادنى مع الأسف إذا شرعت
أضحك فلا سبيل إلى التوقف .. مما أخرج أبى الذى اضطر
أن يخلق من فوره موضوعاً مضحكاً ليتستر على .. وقد دار
الحديث بالفرنسية التى يجيدها سموه كل الإجابة .. وهو
واسع الاطلاع ، وبخاصة فى الفلسفة الشرقية ..

وقد اعتذر لأبى عن ملبسه الشرقى العجيب قائلاً : إنه

فعل ذلك لأنه يحن من وقت لآخر ، إلى ذلك الزمن الخيالى
الجميل .. البعيد .. ألا وهو زمن ألف ليلة وليلة ..

ولما انصرفنا من عند سموه عنفنى أبى على تصرفى ،
فقلت له معتذراً : ولكن بذمتك يا بابا ما رأيك فى العمامة
فأغرق أبى فى الضحك .. وقد نظم سموه قطعة شعرية جميلة
بالفرنسية اسمها « الرجل السعيد » وطلب من أبى أن ينقلها
إلى العربية ففعل ، وإليك القطعة وهى مترجمة ترجمة تكاد
تكون حرفية :

عفيف الجهر والهمس	قضى الواجب بالأمس
ولم يعرض لذى حق	بنقصان ولا بحس
وعند الناس مجهول	وفى ألسنهم منسى
وفيه رقة القلب	لآلام بنى الجنس
فلا يغبط ذا نعمى	ويرثى لأخى البؤس
وللمحروم والعـافى	حوالى زاده كرسى
وما نتم ولا هم	ببعض الكيد والدس
ينام الليل مسروراً	قليل الهم والهـبس
ويصبح لا غبار على	سريره ، كما عسى

فيا أسعد من يمشى على الأرض من الأنس
 ومن طهره الله من الريبة والرجس
 أنل قدرى تشریفاً وهب لي قربك القدسي
 عسى نفسك أن تدمج في أحلامها نفسي
 فألقى بعض ما تلقى من الغبطة والأنس !
 والآيات كما ترى رقيقة ، ثم عن روح رقيقة ونفس
 طيبة خيرة .. ألا رحم الله سموه !

وفي نوفمبر سنة ١٩٢٦ رزق أخى على ولداً سماه أحمد
 تيمنا باسم جده لأبيه ، وقد أحبه أبى حباً جما ، وقد نظم فيه
 قصيدة فى أحد أعياد ميلاده ضاع بعض أبياتها مع الأسف
 وإليك ما وجدته منها :

روحي ولذة عيني	عوذته بالحسين
سلالتى من على	ولدته مرتين
أحبته كأبيه	وزدته حبتين
طفل علينا أمير	مقبّل الركبتين
رضاه غير قليل	وسخطه غير هين

يقصى ويدنى بأولى إشارة الراحتين
ويزدهى بخداع وقول زور ومين
ولكن هذا ليس معناه أن أبى كان يكره خلف
البنات ، بل الأمر بالعكس فإن ما قاله من الشعر فى أختى
لأكثر مما قاله فى على أوفى ..

فما قال فيها عندما اكتملت حولاً :
أمينتى فى عامها الأول مثل الملك
صاحبة للحب من كلٍ وللتبرك
كم خفق القلب لها عند البكا والضحك
وكم رعتها العين فى السكون والتحرك
فإن مشت فخطرى يسبقها كالمسك
ألحظها كأنها من بصرى فى شرك
فيا جبين السعدلى ويا عيون الفلك
ويا يياض العيش فى الأيام ذات الحلك
إن الليالى وهى لا تنفك حرب أهلك
لو أنصفتك طفلة لكنت بنت الملك

ثم قال يهنئها بسنتها الثانية :

أمنية يا بنتي الغالية
وأسأل أن تسلمى لى الس
وأن تقسمى لأبر الرجا
ولكن سألتك بالوالدين
أتدرين ما مر من حادث
وكم بليت فى حلال من حرير
وكم سهرت فى رضاك الجفو
وكم قد خلت من أيبك الجيو
وكم قد شكا المر من عيشه
وكم قد مرصت فأسقمته
ويضحك إن جئته تضحك
ومن عجب مررت الحادثا
فلو حسدت مهجة ولدها
أهنيك بالسنة الثانية
نين وأن ترزقى العقل والعافيه
ل وأن تلدى الأ نفس العاليه
وناشدتك اللعب الغاليه
وما كان فى السنة الماضيه
وكم قد كسرت من الآنيه
ن وأنت على غضب غافيه
ب وليست جيو بك بالخاليه
وأنت وحلوائك فى ناحيه
وقت فكنت له شافيه
ين ويبكى إذا جئته باكيه
ت وأنت لأحداثها ناسيه
حسدتك من طفلة لاهيه !

كما نظم هذه الحكاية فيها وفى كلب لها أسود صغير :
يا حبذا أمينة وكلابها
أمينتى تحبو إلى الحواين
لكنها ييضاء مثل العاج
تعبه جدا كما يحبها
وكلبها يناهز الشهرين
وعبدها أسود كالدياجى

يلزمها نهارها وتلزمه
فعندها من شدة الإشفاق
في كل ساعة له صياح
وهذه حادثة لها معه
جاءت به إلى ذات مره
فقلت أهلاً بالعروس وابنها
قالت: غلامى يا أبى جوعان
فرهموا يأتو بخبز ولبن
فقممت كالعادة بالمطلوب
فعمجت فى اللبن اللبابا
ثم أرادت أن تذوق قبله
هناك ألقى بالصغير للورا
تقول بابا أنا (دحا) وهو (كنخ)
فقل لمن يجهل خطب الآنيه

ومثلما يكرمها لا تكرمها !
أن تأخذ الصغير بالحناق
وقلما ينعم أو يرتاح
تنبيك كيف استأثرت بالمنفعه
تحمله وهى به كالبره
ماذا يكون ياترى من شأنها!
وما له كما لنا لسان
ويحضروا آنية ذات ثمن
وجثها أنظر من قريب
كما ترانا نطعم الكلابا
فاستطعمت بنت الكرام أكله
واندفعت تبكى بكاء مفترى
معناه بابا لى وحدى ما طبخ
قد فطر الطفل على الأنانيه!

كذلك كان يرى أبى أن البنت أشد حنواً بأبويها
من الولد . . وقد ذكر هذا فى رثائه للوزير الكبير مصطفى

فهى بأشا الذى مات ولم ينبج غير بنات :

...لا تذهبن على الذكور بحسرة

الذكر نعم سـلالة العضاء

وأرى بناء المجد يثلم مجدهم

ما خلفوا من طالح وغشاء

إن البنات ذخائر من رحمة

وكنوز حب صادق ووفاء

والساهرات لعلّة أو كبرة

والصابرات لشدة وبلاء

والبا كياتك حين ينقطع البكى

والزائراتك فى العراء النأى

والذاكراتك ما حين تحدثا

بسوالف الحرمات والآلاء

الح...

لم أعتد مع الأسف على شىء من رسائله الخاصة إلينا
ونحن كبار، لقلتها .. إذ كان يؤثر فى مراسلاته معنا البرقيات

للسرعة ، كنت إذا سافرت إلى الخارج طلب منى أن أعده بأن أرسل له كل أسبوع برقية أطمئنه فيها على صحتي ، وكان يعطيني تقوداً خاصة لذلك ، فإذا تأخرت جاءتنى منه برقية يقول فيها : أبرق عن الصحة !

في عام ١٩٢٧ أعاد أبي طبع ديوانه «الشوقيات» فأقيمت له بهذه المناسبة عدة حفلات تكريم اشترك فيها كثير من الأدباء والعظماء ، كما حضر لها خصيصاً وفود من الأقطار الشقيقة .. وأهم هذه الحفلات، حفلة الأوبرا التي كانت تحت رعاية المغفور له الملك فؤاد ورأسه سعد باشا الذي أناب عنه الأستاذ الجدلي بك في إلقاء كلمته ، لاعتكاف دولته . وإليك هذه الكلمة :

« يشرفني ويسرني أن أترأس هذا الاحتفال الجليل لتكريم شاعرنا العظيم أمير الشعراء . وكنت أود أن أشارك حضراتكم في حضور هذا الاحتفال ، ولكن ضعف صحتي حرمني هذا الشرف الأكبر فأنبئت حضرة صاحب المعالي محمد فتح الله بركات باشا ليبلغ حضراتكم تحيتي ويهدي إليكم وافر احترامي ، ويخص بأطيب تحياتي

وفود الأقطار العربية الذين جشموا أنفسهم مشقة السفر
لمشاركتكم في هذا التكريم الكريم ، وإني أرحب
بقدومهم ، وأرجو لهذا الاجتماع النبيل كل نجاح ، آملا
أن يكون وسيلة صالحة لتوثيق عرا المودة والإخاء بين
أهل اللغة العربية الشريفة في سائر الأقطار الشرقية . »
ثم تكلم رئيس لجنة التكريم المرحوم أحمد شفيق باشا
وقفاه الأستاذ أحمد حافظ عوض بك سكرتير لجنة الاحتفال
وقام بعده الأستاذ محمد كرد علي نائبا عن المجمع العلمي العربي
بدمشق ، وتلاه شبلي بك ملاط شاعر لبنان فألقى قصيدة
عصماء ، وتبعه شاعر القطرين خليل بك مطران بقصيدة
أخرى عامرة الأبيات ، ووقف بعد ذلك حافظ بك إبراهيم
وألقى قصيدته العينية المشهورة التي بايع فيها أبي إمامة
الشعر باسمه وباسم شعراء الشرق . .

وعند ما قال :

أمير القوافي قد أتيت مبايعا

وهذه وفود الشرق قد بايعت معي

نهض أبي من مقعده وكان يجلس في المقصورة التي

تشرف على خشبة المسرح وعانق حافظ بك طويلاً ..
وفي ختام هذه الحفلة ألقى الأستاذ محمد توفيق دياب بك
القصيدة التي نظمها أبي شكراً للمحتفين به ، وهي التي مطلعها:
مرحباً بالربيع في ريعانه وبأنواره وطيب زمانه
ولما كانت قد قدمت لأبي عدة هدايا بمناسبة هذا
الاحتفال فقد أشار إليها في هذه القصيدة ، فقال عن نخلة
صغيرة من الذهب الخالص ، وثمارها لؤلؤ وقاعدتها
مرجان ، هدية من أمير البحرين :
قلدتني الملوك من لؤلؤ البحرين ..

.. آلاءها ومن مرجانه

نخلة لا تزال في الشرق معنى

من بداواته ومن عمرانه

ثم قال في يراع من الفضة قدمه النادي العربي في پومباي :
وحبتي پومباي فيها يراعا أفرغ الود فيه من عقيانہ
ليس تلقى يراعها الهند إلا في ذرا الخلق أو وراء ضمانہ
انتضيه انتضاء موسى عصاه يفرق المستبد من شعبانہ
يلتقى الوحي من عقيدة حرّ كالحواريّ في مدى إيمانہ

غير باغ إذا تطلب حقا أولئيم اللجاج في عدوانه
وأقيم في اليوم التالي اجتماع كبير في دار « الجمعية
الجغرافية الملكية » ألقى فيه سماحة السيد أمين الحسيني
كلمة باسم فلسطين ، ثم وقف شاعر القطرين خليل بك
مطران فألقى قصيدة للأمر شبيب أرسلان مطلعها :
نادالقرنحمة ما استطعت نداءها

ان الحقوق لتقتضيك أداءها

وبعده نهض الأستاذ الكبير إسعاف بك النشاشيبي
فألقى خطبة عنوانها : « العربية وشاعرها الأكبر أحمد
شوقي بك » ، وتبعه بمحاضرة الأستاذ السيد محمد أحمد
داوود من علماء تطوان بالمغرب الأقصى ، ثم ألقى
قصيدة للأمر صالح بن سعد بن سالم من عدن ، وقصيدة
أخرى للأستاذ بدر الدين النعساني من علماء حلب وعضو
المجمع العلمي العربي ثم كلمة للأديب الباجي فندنبرج نائباً
عن شعراء بلده .. الخ .. ثم حفلات أخرى .. منها سهرة في
سراي كازينو الجزيرة .. ونزهة نيلية على الباخرة « بريطانيا »
ما بين روض الفرج والقناطر الخيرية ذهاباً وإياباً .. الخ .

وقد اختتمت هذه الحفلات بحفلة ساهرة كبيرة أقامها
لهم أبي في الكرامة، كانت الكرامة خلالها، على حد تعبيره
في « عرس القوافي »، كما سامت لأبي في تلك السهرة
رسالة كان لها وقع عظيم في نفسه، إذ هي تحية من زعماء
الثورة السورية. كتبت بيمين القتال وقد وقعها هؤلاء
الأبطال واحداً واحداً.. وقد أشار أبي إليها في قصيدته
في ذكرى شهداء استقلال سوريا إذ قال :
... ذكرت المهرجان وقد تجلّى

ووفد المشرقين وقد توالى

ودارى بين أعراس القوافي

وقد جلّيت سماء لا تعالى

تسلل في الزحام إلى نضو

من الأحرار تحسبه خيالاً

رسول الصابرين ألمّ وهناً

وبلغنى التحية والسؤال

دنا منى فناولنى كتاباً

أحسّت راحتى له جلالاً

وجدت دم الأسود عليه مسكا
وكان الأصل في المسك الغزالا
كأن أسامي الأبطال فيه
حواميم على رق تتالى
رواة قصائدى ، قد رتاوها
وغنوها الأستة والنصلا
إذا ركزوا القنا انتقلوا إليها
فكانت فى الخيام لهم تقالا

فى عام ١٩٢٨ توفى أمين بك الرافعى فاغتم أبى لموته إذ كان
يحله كثيراً ؛ فقد كان أمين بك فى الصحفيين السياسيين
يعد مثلاً عالياً لطهارة الذمة ونبل الغاية ونزاهة الضمير ..
وكان أبى يتردد عليه فى مكتبته بالجريدة وقد أشار إلى ذلك
فى رثائه له ، كما أشار إلى صفاته الحميدة فقال :
.. لست أنساك قابلاً بين درجتيك ..

... مكباً عليهما مشغولاً

قد تواريت فى الخشوع نخالوك ..

.. ضئيلاً وما خلقت ضئيلاً

سائل «الشعب» عنك و «العلم» الخفّاق ..

.. أو سائل « اللواء » الظليل^(١)

كم إمام قربت في الصف منه

ومغن قعدت منه رسيلا

تنشد الناس في القضية لحناً

كالحواريّ رتل الإنجيلا

ماضيّاً في الجهاد لم تتأخر

تزن الصف أو تقيم الرعيلا

ما تبالي مضيت وحدك تحمي

حوزة الحق أم مضيت قبيلا

في ذلك العهد رغب أبي عن المصيف في أوروبا وصار

يتردد على لبنان الذي افتتن بحاسنه إلى حد أنه شبهه بالخلد

فقال :

.. لبنان والخلد، اختراع الله لم

يوسم بأزينّ منهما ملكوته

(١) الشعب والعلم واللواء ، أسماء صحف كان الفقيه يحررها .

هو ذروة في الحسن غير مروية
وذرا البراعة والحجى « يروته »
ملك الهضاب الشم سلطان الربى
هام السحاب عروشه وتخوته
سيناء شاطره الجلال فلا يرى
إلا له سُبُحاته ^(١) ، وسموته ^(٢)
والأبلى الفرد انتهت أوصافه
في السؤدد العالى له ونعوته
جبل على آذار يزرى صيفه
وشتاؤه يشد القرى جبروته
أبهى من الوشى الكريم مروجه
والذمن عطل ^(٣) النحور مروته ^(٤)
يغشى روايه على كافورها
مسك الوهاد فتيقه وفتيته ^(٥)

(١) السبعة بضمين : الجلال
(٢) السم بالفتح هيئة أهل الخير
(٣) عطل النحر من الحالى خلا
(٤) المروت جمع مروت وهى المفازة
(٥) فتح المسك استخرجه بشئ يدخله عليه ، والفتيت المفتوت .
بلانيات

وكان أيام الشباب ربوعه
وكان أحلام الكعاب بيوته
وكان ريعان الصبا ريحانه
سر السرور يجوده ويقوته^(١)
وكان أئداء النواهد تينه
وكان أقراط الولايد توته
وكان همس القاع في أذن الصفا^(٢)
صوت العتاب ظهوره وخفوته
وكان ماءهما وجرس^(٣) لجينه
وضح العروس تبينه وتصيته^(٤)^(٥)

ولم يكن جمال الطبيعة وحده الذي حجب أبي في لبنان
بل كانت كذلك محبة أهله له ، وحفاوتهم البالغة به كلما
ذهب إلى هناك . فليس ثمة شعب في الشرق ، على ما أعتقد
يهتم بالشعر والأدب كما يهتم هؤلاء القوم بهما ، وأذكر

(١) يقوته : يطعمه (٢) الصفا : الصخر (٣) الجرس : الصوت

(٤) الوضح : حلى من الفضة (٥) تصيته : تجمعه بصوت .

الحادث الآتى دليلاً على ذلك : كنا ذات يوم في « عاليه »
واقفين أمام الفندق ، فتقدم ماسح أحذية واستأذن أبي
في تنظيف حذاءه له فأذن له أبي ، فسأل أحد الحاضرين
ماسح الأحذية وكلاهما لبناني ، أهو يعرف السيد الذي
ينظف له حذاءه ؟ فأجاب ماسح الأحذية في زهو : طبعاً
ياسيدى هو شاعر مصر الكبير الذي قال :
قبر الوزير تحية ، وسلاماً

الحلم والمعروف فيك أقاما
ثم أنشد القصيدة كلها دفعة واحدة ! . وهى مرثية أبي
في بطرس باشا غالى .
وكاد أبي يذهب ضحية حادث سيارة في الجبل : لأن
الطرق فيه ضيقة ، والمنعطفات خطيرة ، وسائقو السيارات
هناك يسرون بسرعة مخيفة ، حدث ذلك وهو في طريقه
إلى « عاليه » إذ كان على موعد مع شاعر لبنان الكبير بشاره
الخورى ، وقد أشار إلى هذا بشاره في مرثيته لأبي فقال :
... « شوقى » أتذكر إذ « عاليه » موعدنا

نمنا وما نام دهر عن مقادره

وإذ طلعت علينا أصفراً وجلاً

كالبدر خلف رقيق من سستائه ...

وبلغ من حب اللبنانيين لأبي أنهم أطلقوا اسمه
على أحد الشوارع الكبيرة في بيروت .

وليس أبي بأول شاعر فتنه جمال لبنان وسحرته طبيعته،
«فلا مرتين» الشاعر الفرنسي الوجداني هام به من قبل، على أنه
كان سيء الحظ في إقامته هناك إذ فقد خلالها ابنته المحبوبة ..
وقد زار أبي خلال إحدى هذه الرحلات دمشق عاصمة
الأمويين الشهيرة، فاستقبله شبابها استقبالا حماسيا عظيما. وقد
ذكر هؤلاء الشباب في القصيدة التي نظمها عنها إذ ذاك فقال:

... نزلتُ فيها بفتيان ججاجحة

آباؤهم في شباب الدهر غسان^(١)

بيض الأسرّة^(٢) باقٍ فيهم صيدٌ

من (عبد شمس^(٣)) وإن لم تبق تيجان

يا فتية الشام شكراً لا انقضاء له

لو أن إحسانكم يجزيه شكران

(١) غسان : أبو قبيلة باليمن منهم ملوك غسان وكانوا ملوكا للشام .
(٢) الأسرّة : الوجوه (٣) عبد شمس : يعني بني أمية .

ما فوق راحتكم يوم السماح يد
ولا كأوطانكم في البشر أوطان
ثم زار في دمشق مسجدها الأموى التاريخى ، وقد
بكى هناك ، كما بكى من قبل فى جامع قرطبة ، بنى أمية
الأعاج الذين شيدوا المسجدين فقال :
مررت بالمسجد الحزون أسأله
هل فى المصلّى أو المحراب (مروان)
تغيّر المسجد الحزون واختلفت
على المنابر أحرار وعُبدان
فلا الأذان أذان فى منارته
إذا تعالى ولا الأذان آذان

فى عام ١٩٣٠ توفيت عمّتى فسادر أبى بعد تشييع الجنازة
مباشرة إلى الإسكندرية ، أى إنه لم يحضر لىالى المأتم ،
فانتقده بعض الأقارب على هذا التصرف . والواقع أن تخلفه
عن تأدية هذا الواجب لم يكن جحوداً بأخته وإنما هو
حساسية شديدة . . استدلت على هذا بأننا نحن أولاده

وكان يحبنا جداً ، عندما يمرض أحداً مرضاً شديداً كان
يهرب من البيت ، بل يسافر إلى الإسكندرية ويظل هناك
حتى يزول الخطر . ومن الأدلة على هذه الحساسية الشديدة
أن والدته لما توفيت في حلوان ، وكنا إذ ذاك في أسبانيا ،
رثاها بمرثية طويلة ، ثم طوى هذه المرثية فلم ينشرها طول
حياته ، ونشرناها نحن بعد وفاته . ذلك لأنه من فرط تأثره
بها تخشى أن ينظر إليها فيما بعد ، وهى القصيدة التى مطلعها :

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما

أصاب ســـــــويداء الفؤاء وما أصمى
ولما عدنا إلى مصر بعد المنفى ، لم يطق أن يذهب
إلى حلوان حيث ماتت أمه المحبوبة . .

ومن ظلم المقادير أنها ماتت يوم إعلان الهدنة ، وقد
أشار إلى ذلك فى تلك المرثية إذ قال :

... فلما بدا للناس صبح من المنى
وأبصر فيه ذو البصيرة والأعمى

وقرّت سيوف الهند وارتكز القنا
وأقلعت البلوى وأقشعت الغمى

وحنّت نواقيس ورنّت مآذن
ورفت وجوه الأرض تستقبل الساما
أتى الدهر من دون الهناء ولم يزل
ولوعاً بينان الرجاء إذا تمّا

ومما يدل على محبته لأهله المتاعب التي تحملها خلال
مرض أبيه ؛ فقد كان يحضر له يومياً على ظهر دابة الماء
العذب من القاهرة . . لأن أباه كان يقيم إذ ذاك في ضاحية
ليس بها ماء عذب .

ومن الأمثلة أيضاً على وفائه لأهله ما يلي : كان له ابن
خال مريض بالسل ، وكان المرض متقدماً ومع ذلك كان أبي
يجلس إليه الساعات الطويلة ويتناول معه الطعام مع استعماله
نفس الأواني والمغارف حتى لا يشعر ابن خاله بما يؤلمه .
وكان ابن خاله المسكين لا يشعر بدنو أجله ؛ فقد كان يخرج
من جيبه — من وقت لآخر — كيساً مملوءاً بالذهب ثم
ينثره على السرير ويصيح : انظروا يا أحمد عندما أشفى من
مرضى بإذن الله نسافر إلى باريس معاً حيث نفق هذه النقود
في اللهو والمرح . . ويقال إن معظم المرضى بالسل هم

على هذا المنوال من حيث التفاؤل والأمل الشديد في الشفاء.
وكان ابن خاله هذا طويل الأنف فنظم أبي فيه مداعباً
هذين البيتين :

لك أنف يا ابن خالي تعبت منه الأنوف
أنت بالبيت تصلي وهو بالركن يطوف!

١٩٣١ و ١٩٣٢ هما العامان اللذان اشتغل أبي فيهما
أكثر من أى وقت آخر فى إنجاز رواياته التمثيلية ، كأنه
كان يحس بدنو أجله ، ففي هذه الحقبة أتم «مجنون ليلي» ثم
أعاد نظم «على بك الكبير» كما ألف «قبيز» و«الست هدى»
و «البخيلة» وشرع فى وضع رواية عن محمد على الكبير ؛
ولكن هذا الاجتهاد كان مع الأسف على حساب جسمه
الضئيل الذى ناء بالمرض .. وقد أمره الأطباء بملازمة الحجر
إذ ذاك ، ومنعوه من معظم متعه لذلك صار سريع التهيج ..
فإذا قال له أحد الزائرين إن صحته ليست على ما يرام أو إن
سيما التعب تبدو عليه ، كان لا يسمح لهذا الزائر بزيارته
مرة ثانية !

وكان لنا قريب ساذج إلى حد بعيد فاما عرف أن أبي
يتضايق ممن لا يطمئننه على صحته من زائريه . دخل عليه يوما
ثم وضع كفه على جبين أبي قائلا : أظن يا سعادة اليك أنه
لا توجد لديك حمى بتاتا ، فارتاح أبي إلى هذا . إذ كان يشك
في وجود شيء من الحمى . . . وليتأكد من ذلك وضع مقياس
الحرارة في فمه ، وبعد دقائق قليلة أخرجه ثم ناوله إلى هذا
القريب ليقرأ له درجة الحرارة لأن نظر أبي كان ضعيفا
لا يستطيع أن يحقق أرقام المقياس الصغيرة تأمله صاحبنا
مليا ثم قال : ما شاء الله ! ما شاء الله ! إن حرارتك ٣٣ فقط
ياسعادة البك ! فصاح أبي مغضبا : أيها الجاهل لو كانت
حرارتي ٣٣ كما تدعي لكنت ميتا الآن !

في ذلك العهد كنا نخفي عنه ما كان يظهر في بعض
الصحف من نقد لرواية قبيز حتى لانضايقه وهو في مثل هذه
الحالة : لأنه كان حساسا جدا فيما يتصل بخوفااته ، وبخاصة
شعره الذي كان نخورا به إلى حد بعيد !

وقد افتخر كثيرا بشعره هذا في قصائده : ففي سرثيته
لمصطفى كامل ، قال :

وأنا الذي أرثي الشمس إذا هوت
فتعود سيرتها إلى الدوران
وقال في قصيدته في نكبة دمشق :
رواة قصائدي فأعجب لشعر
بكل محلة يرويه خالق
وفي استقبال (المغفور لها) أم المحسنين :
لاتروى غير شعري موكباً
إن شعري درجات الخالدين
كل حمد لم أصغه زائل

خالد الحمد بما صنعت رهين

..... إلخ

أما نقد رواية قميز فلم يكن لوجه الله ! بل سببه أننا
كنا في ذلك الوقت مرتبطين بصلة المصاهرة بدولة إسماعيل
صدق باشا الذي كان رئيساً للوزارة ، فكان هذا سبباً في
نظر بعض صحف المعارضة إذ ذاك ، لمهاجمة أبي في أدبه !
مع العلم بأن رواية قميز هي في رأيي من أحسن روايات أبي ،
إذ روجعت فيها الوقائع التاريخية مراجعة دقيقة بمعرفة

بعض أساتذة الآثار المصرية ؛ ومما يدل على توخي الدقة فيها
أن أسماء أشخاص الرواية من مصريين وفارسيين هي أسماء
كانت شائعة فعلاً في ذلك العصر بمصر .

وكان إذا أتم إحدى هذه الروايات دعا إلى الكرم
بعض الأدباء والممثلين (وبخاصة المرحوم عزيز عيد) لتقرأ
عليهم . . فإذا رأوا تغيير أحد المناظر غيَّره لهم في الحال ،
أى إنه ينظم عشرة أو عشرين بيتاً آخر . . . بقدر ما يتطلبه
المنظر الجديد في لمحة بصر !

وبمناسبة هذه المقدرة الكبيرة على نظم الشعر ، قال
لى أحد أصدقائه الأخصاء : إنه نظم أكثر أبيات قصيدة
النيل المشهورة في سمرة واحدة بفندق سميراميس بقصر
النيل ، وهى التى مطلعها :

من أى عهد فى القرى تتدفق

وبأى كفٍّ فى المدائن تُغدق

مع أن هذه القصيدة تزيد على مئة بيت !

وبمناسبة ذكر عزيز عيد ، أذكر أنه بدا لعزیز مرة
أن يقوم هو بدور قيس فى رواية « مجنون ليلى » وصمم

على ذلك وإلا وقف تمثيلها ، فلم نخطر أبى بذلك خشية أن يغضب . لأن « عزيز » لم تمنحه الطبيعة من الناحية الشكائية ما يكفل له النجاح فى هذا الدور ولما أخبرنا أبى بذلك بعد تردد طويل ، لم يغضب كما توهمنا بل ضحك كثيراً وقال : ولم لا ؟ سنشهد نسخة أخرى من مجنون ليلى ولكن فكاهية ! كانت تسليته خلال هذه المدة ، إلى جانب اجتهاده فى إنجاز رواياته . القراءة التى يقوم بها له سكرتيره أحمد افندى عبد الوهاب ، وكان يميل إذ ذاك إلى كتب الفلسفة الإسلامية . . وكان معجباً بوجه خاص بالغزالي ، كذلك كان يميل إلى سماع كتاب الجبرتي عن عصر المماليك . . فيسر كثيراً للنوادر المذكورة فيه . . وكان يقول إن الجبرتي اضطر إلى النفاق لينجو برأسه . وقد أشار إلى هذا فى تقريره لكتاب « فتح مصر الحديث » تأليف أحمد حافظ عوض بك ، فقال :

... والجبرتي على فطنته سررة يغيب وحينما يتغابى ولم يمنعه اعتكافه من أن يلبي رجاء أية جمعية تطالب منه قصيدة لغرض وطنى أو خيرى .. وآخر قصيدة نظمها

في هذا السبيل ، قصيدته في مشروع القرش ، إذ كانت
تلاوتها يوم وفاته ! .. وهي التي مطلعها :

لا يقيمن على الضيم الأسد

نزع الشبل من الغاب الوتد

وهذه القصيدة أكثر من أربعين بيتاً ..

وكان إذا أذن له الأطباء في الخروج قضى سهرته في
بيت المرحوم إسماعيل بك شرين حيث كان يجتمع للسمر
كل ليلة نخبة من الأصدقاء أمثال : المرحومين فؤاد سليم
حجازي باشا ، الدكتور محبوب ، حافظ بك إبراهيم .
وكان إسماعيل بك معترفاً بكونه من أصل تركي في حين
يباهي حافظ بك بأنه مصري صميم ، فكانت تقوم بسبب
ذلك منازعات بينهما ، فيقول إسماعيل بك لحافظ بك على
سبيل الأغاظة : لا داعي للمكابرة يا حافظ إن كثرة عظماء
البلد ونوابغها من أصل تركي مثلنا ، حتى شاعرهم الأكبر
« يقصد أبي » يجري في عروقه الدم التركي ! فتثور
عندئذ نائرة حافظ بك ويتهم الترك بدوره بالغباء

أما الدكتور محبوب فكان كلما سمع عن شخص أنه

تزوج حن هو أيضاً لازواج وطلب من الحاضرين أن يحدوا
له العروس الصالحة ، فإذا سئل كيف يحب أن تكون
عروسه قال : أريدها كما أرادها كعب بن زهير :
هيفاء مقبلةً عجزاء مدبرةً

لا يشتكى قصر فيها ولا طولُ
كذلك كان يتمناها شابة ، فكان أبي يلومه على هذا
مذكراً إياه بالخيوط الفضية التي غزت لحيته . فيصيح
الدكتور : إن هذا لا يهم ، إذ تجرى في عروقه دم الشباب !

وكان أبي يحتفظ في أيام اعتكافه بملبس في درجه
كى يستدرج إلى حجراته حفيديه احمد وبوله^(١) وكان
يسمى هذا الملابس الطعم ، مردفاً : أو تظنون أن هؤلاء
الشياطين كانوا يحضرون لزيارتي لولاه ؟ كلا ! إذ بالله
ما مصالحة أمثالهم في ممازجة شيخ مهدم مثلى ؟

في يوم الوفاة ، أى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، خرج

(١) هى إقبال بنت أختى الوسطى

يتروض في السيارة مع سكرتيره في ضاحية مصر الجديدة
وقد تحدث معه يومها في موضوعات دينية ، وقد سأله
بوجه خاص ، وكأنه قد أحسّ بدنو أجله ، عن التوبة
والغفران وهل هو يتذكر نصائحهم ما في القرآن الكريم؟
ثم زار في مساء اليوم نفسه ، الأستاذ محمد توفيق
دياب بك في مكتبه بجريدة الجهاد ، فقد كان أبي يحب
الأستاذ دياب ويرتاح إلى مداعباته . وقد نظم له بيتاً جمعه
الأستاذ دياب بك شعاراً لجريدته « الجهاد » ، وهو :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً

إن الحياة عقيدة وجهاد

وقد توفي حوالى الساعة الثانية صباحاً . . . أيقظني
الخادم قائلاً ان أبى تعبان وانه أرسله في طلبى ، كما أرسله في
طلب أمى ، فأسرعت إلى حجرتة فوجدت أمى بجانب
السرير قلقة تناديه : ما بك ؟ ما بك ؟ ولكنه لا يجيب إذ
كانت روحه قد فاضت ، ذهبت إلى ذلك العالم المجهول
الذى طالما ساءل عنه وتمنى لو عرف أسرارہ ، ألم يقل
مخاطباً شكسبير :

يا صاحب العصر الخالي ألا خبر

عن عالم الموت يرويه الألباء

أما الحياة فأمر قد وصفت لنا

فهل لما بعد تمثيل وادناء ؟

وقد كتبنا على قبره عملاً برغبة أبداها يوماً ، البيتین

التالین وهما من قصیدته « نهج البردة » فی مدح الرسول :

يا احمد الخير لي جاء بتسميتي

وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

إن جلّ ذنبي عن الغفران لي أمل

في الله يجعلني في خير معتصم